سيرة

# الضوء الأزرق

حسين البرغوثي

التقيت به : صوفي من قونية، تركيا، من طائفة «الدراويش الدوارين»، من أتباع مولانا جلال الدين رومي الذي سنّ الرقص لهم وله، قال إن أباه كان ضابطاً تركياً أتى إلى الولايات المتحدة في دورة عسكرية ولم يرجع، فنشأ هو هنا، وتعلم الفلسفة وعلم النفس السياسي، وقرر كتابة بحث عن القوانين التي تحكم الكون والذهن، فعاد إلى تركيا، وصار صوفياً، ثم ترك كل شيء وصار مجنوناً أو مشرداً، أو أية صفة أخرى نطلقها على من لا نفهمهم.

كنت أيامها في برنامج الماجستير في الأدب المقارن في جامعة واشنطن، سياتل. على الأقل خارجياً كنت كذلك، لكن، داخلياً، كنت على حافة الجنون، أعني يهيمن عليّ رعب ما من أنني سأفقد عقلي، وجئت لهذه المدينة هرباً من مدن كبرى مثل نيويورك، لأنه لا وقت عندي لمدن كبرى، ولا لشخصيات المدن الكبرى، كنت أبحث عن منطقة طقسها معقول، وقت لنفسي، ولترتيب فوضاي.

لأشهر لم أتكلم مع أحد. أتسكع وحيداً بين أشجار الغابة المحيطة بالحرم الجامعي، ليلاً، وأفكر، أفكر، أفكر أفكر. دائماً في شيء ما، في «مضمون» ما ، فلسفة ما، قصيدة ما، أفق ما، ولكن اكتشفت بأن المشكلة ليست في «ماذا»، بل في «كيف» أفكر. ذهني كاميرا عدستها غير دقيقة، أو منحرفة أو ، ببساطة، غير صالحة، وكل صورها غير دقيقة، ومنحرفة، وغير صالحة. «كيفية تفكيري» هي العدسة.

منذ زمن وأنا أعتقد بأنني سأجن. أحدق في المرآة وأنا أحلق لحيتي، وأقول لنفسي : «إبق على الخط».

منذ الطفولة كنت أفقد إدراكي بين فينة وأخرى، مرة في بيروت ذهبت إلى سينما

«كارمن» لمشاهدة فيلم «مقتل يوليوس قيصر»، وخرجت من السينما إلى شارع من الأضواء والسيارات والحركة الحديثة (سنة ١٩٦٤). وفجأة لم أدر أين أنا، ولا أين الطريق لبيتنا، ولا ما هو هذا المكان ومن هم سكانه. وزاد من خوفي ما كنت سمعته من إشاعات، عن عصابات لسرقة الأطفال، مثلاً عن امرأة تلبس خماراً في باص على الحدود السورية – اللبنانية : صيف ، حر شديد، وعرق على الوجوه، وفي حضنها طفل ملفوف برداء. قال لها الشرطي أن تكشف عن وجهه لئلا يختنق من الحر، ولم تكشف، فشك في أمرها، وأزاح الغطاء. فوجد طفلاً صغيراً ميتاً شق المهربون بطنه وحشوه بالحشيش وخيطوه. وامتزجت هذه الإشاعة في ذهني بالفيلم الروماني، وصورة وجه قيصر على طول الشاشة في فراش الموت وهو يرشح عرقاً...

لم أدر أين أنا. سألت رجلاً عابراً في الزحام عن الطريق إلى «كورنيش المزرعة»، فنادى على شخص آخر وأوصاه بي، ومشيت مع هذا «الآخر» في شوارع كنت مشيتها ألف مرة سابقاً، ولكنها الآن بدت غريبة تماماً، ولا أعرفها. عادة ما أستيقظ من هذه الحالة التي تشبه التنويم المغناطيسي أو «السرنمة» (المشي نائماً) عند رؤية شيء معين أعرفه تماماً، علامة ما تعيد لي الوعي المألوف، وفجأة بعث الله بالعلامة : محل لبيع الورد في الكورنيش يقع بيتنا قربه، واستيقظت. وقلت للغريب إن بيتنا هنا، لكنه حاول إقناعي بأن بيتنا بعيد جداً من هنا. ولما رفضت أخذ بعض الليرات التي عرضها عليّ للإغراء، حاول جرّي بالقوة من رسغ يدي. كنت قويّ البنية، ووجد صعوبة في جري، ولم ينقذني غير رؤية شرطيين أمام مقر مجلة «الحوادث» – في بناية بلكونتها مرصوفة ببلاط أزرق صغير، وكنت أسميها بـ «البناية الزرقاء» – فهددته بأنني سأستنجد بهما، وأشرت للشرطيين.

«فقدان الادراك» ؟ حالة محيرة، لا مسماة، وتتكرر..

وصلت الحالة في ١٩٨٥ حد أخذ حبوب منومة، وأدوية لتهدئة الأعصاب . في إحدى الليالي، وكنت نائماً في بيتنا، شعرت بشيء ما بدا وكأنه يقبلني على عينيّ، فانتفضت واقفاً ومرتعباً. كنت أرجف إلى درجة أنني كنت أعي كل شريان دم في جسدي، وكل عصب، فيض من الطاقة الإستثنائية ، كنت أرقص مثل دمية، غير قادر حتى على الوقوف الطبيعي، وشعرت بأنني سأموت الآن، في ثانيتين، بتفجر القلب أو الدماغ، فركضت بأسرع ما عندي لكي استنزف شيئاً من الطاقة. ركضت، ركضت بأقصى قواي في الواحدة ليلاً، لساعة تقريباً، ولما توقفت وجدتني في جبال خالية، برية، بعيدة عن أي إنس أو جن، وفوقي قرص قمر بدا قريباً جداً، بين غيوم بيضاء تسبح من حوله وكأنه سيسقط عليّ، حالة من «حضور الأشياء»، وكأن الكون سيبتلعني، فضربت جبيني بيدي وأنا أتمتم لنفسي : «هذا قمر ! لا تنس هذا هو القمر ! لا تنس ! «، كل ما أدعوه «عقلاً»، كل «أسماء» الأشياء كل «ذاكرتي»، بدا في خلفية رأسي، كملف لا فائدة منه، وبرز حضور

آخر، وكأن الله يتجلى. وبقيت على هذه الحالة حتى طلعت الشمس، فاستلقيت على صخرة تحت أول الأشعة وغفوت حالاً من شدة الإرهاق. كم شعرت بالأمان، كم شعرت، لما انتهى الليل.

**مقدمة في علم نفس الضباب؟**

غريب كم يبدو المكان كمصيدة أحياناً. لسبب غامض وجدت نفسي أقضي جلّ وقتي في سياتل متردداً بين أمكنة ثلاثة : سينماتيك «الوهم العظيم»، وحانة «القمر الأزرق»، ومقهى «المخرج الأخير». جذبتني أسماء هذه الأمكنة، جذبني أكثر اسم «القمر الأزرق». اللون تحديداً جذبني. قيل الأزرق مضاد للهياج الجنسي – كنت ثوراً جنسياً – وقيل مهدئ للأعصاب – كنت على حافة الجنون، والعصبية إرثي، أبي مشهور بعصبيته –.

قلت : اللون جذبني. تعتقد الطائفة الصوفية «النقشبندية» أن في الإنسان عدة أنفس، ولكل نفس هالة أو ضوء خاص بها. الأزرق لون «النفس الأمارة بالسوء »(نفسي كانت تأمرني ليس فقط بالسوء بل حتى بالجريمة، وكنت أخشى من أن تنفصم شخصيتي وتقوم إحدى الشخصيتين باقتراف جريمة لا تعرف عنها الشخصية الأخرى)، أما الأحمر فلون النفس «الملهمة»، والأبيض لون النفس «المطمئنة»، والأخضر لون النفس «الراضية»، والأسود لون «المرْضية» (أرضاها الله)، أما الأصفر فلون النفس «اللوامة».

لكن لكل نفس، في رأيي، ألوانها الخاصة. يقولون في بوذية «التبت» إن الأزرق هو لون طاقة الخلق فينا، لون أول كائن فاض عن طبيعتنا الأولى، التي لا لون ولا هيئة لها.

أذكر من سنوات خلت : كنت أغمض عينيّ واستمع لموسيقى كلاسيكية لسترافنسكي أو بيتهوفن أو موزارت. دائماً كنت أتخيل نفسي في واد في جبال طفولتي، ولون الواد أزرق غامق، الصخور زرقاء غامقة، سحرية. هل كان هذا حدس بطاقة خلق مكبوحة أم مجرد حنين للطفولة أم غربة عن كل شيء ؟ لا أدري. لكن اهتمامي بالأزرق قديم. منذ الطفولة علق في ذهني اسم «زرقاء اليمامة»، لا لشيء إلا لأن اسمها غريب وأزرق. وفقط حديثاً، بعد عقود، بدأت في بحث لون اسمها.

«زرقاء اليمامة» أشهر عرافات العرب قبل الإسلام. قيل إنها كانت أبصر من يبصر عن بعد، وكانت تمسح المسافات بعينيها وتنذر قومها بما ترى. وفي ذات يوم رأت شجراً يمشي. كان الغزاة قطعوا فروع الشجر ومشوا تحتها كيلا تراهم زرقاء، ولم يصدق أحد ما رأته، فوصل الغزاة ودمروا اليمامة، ولما قبضوا على زرقاء قلعوا عينيها بحثاً عن سر قوتهما، فوجدوهما محشوتين بـ «الأثمد الأسود»، وهو حجر يدق وتكتحل نساء العرب ورجالاتها بنثاره، وزرقاء أول امرأة فعلت ذلك.

الحجارة السوداء كانت مقدسة للربة القمرية القديمة، عشتار. ولذا فإن اكتحال النساء بنثار الأثمد كان نوعاً من الصلاة لربة القمر بأن تلهمهن بُعد الرؤيا – «البصيرة» –

العرافة. وعيون زرقاء «محشوة» بالأثمد الأسود، فهي عرافة قمرية. أما قصة الشجر الذي يمشي فانتشرت في أدب أوروبا قادمة من الشرق : فالساحرات ينذرن ماكبث، في مسرحية شكسبير، بأنه سيموت حين تمشي غابة دولسنين.

لم أجد في الأسطورة ما يكفي لحل لغز تسمية زرقاء باسمها هذا، ومن المحتمل أن الأزرق لون إلهي يرتبط بالأزرقين : البحر والسماء. أما عند الفرس، في المزدكية، فإن للإله الأسمى، أهرو مزدا (القوة والحكمة)، «عدو أزرق»، هو أهرومان. فالأزرق إبليسي المعنى.

عندي الأزرق لون الغربة، والغيب، وسماء الطفولة. وربما أن لنواياي السيئة لوناً أزرق. مرة تعلمت العزف على البيانو، و«ألفت» لحناً ساحراً، قصيراً، وعزفته لمدة طويلة جداً، يوماً بعد يوم. ولم أنتبه لسر حبي له حتى قرأت كتاباً لموسيقار أسود، يزعم فيه أن لكل «نوتة» موسيقية لوناً خاصاً بها، ولكل مقطوعة موسيقية لوناً خاصاً بها، فأحد سوناتات موزارت تثير في السامع اللون الأخضر أو الأزرق أو .. بحثت عن لون «النوتة» التي سحرتني، وذهلت عندما وجدت أن لونها أزرق. وانتبهت إلى كوني أحب بشكل خاص أغاني «البلوز»، التي تتضمن نوتة تدعى بـ «النوتة الزرقاء». البلوز !

«كانت لجده امبراطورية
ولجدته امبراطورية
وفي وسط شيكاغو كان يفلت بجرائمه
ويركض ليلاً على تلال سان فرنسيسكو وهو يعوي مثل ذئب..»

وعند السود في الولايات المتحدة، الأزرق لون المعاناة، «لماذا أنا حزين وأزرق؟» (أغنية جاز للويس آرمسترونغ، على ما أعتقد).

تلبسني اسم «القمر الأزرق»، مثلما قلت. ولكن عندما ذهبت لزيارته وجدته حانة باهتة قديمة وقذرة، ولقد حاولت الحكومة هدمها وإقامة مركز تجاري مكانها، فثارت ثائرة طائفة من المثقفين الذين اعتبروها معلماً تاريخياً لروح مدينة «سياتل»، ففي ستينات القرن الماضي اندلعت الحركة الثورية التي هزت الولايات المتحدة : حركة الحقوق المدنية والإحتجاج على حرب فيتنام، وبعض رموز هذه الحركة مروراً بالحانة، فهي ذاكرة ثورية مكثفة. سياتل مدينة فيها كثير من الحنين للستينات هذه. لكن ما بين زرقة الإسم وواقع الحال هوّة تشبه كذبة : رف من الخشب على طول جدران الحانة مليء بكتب قديمة، وعلى المصطبة أعقاب سجائر لا تعد، وعلى الطاولات سكارى و «هيبيز» وعاشقو ستينات، وهناك طاولة بلياردو قديمة، وقد تقشرت أرضيتها المخملية الزرقاء...

أما المخرج الأخير فلون جدرانه باهت، عليه ورق حائط أكل الدهر عليه وشرب. وعليه يعلق كل من يعتقد بأنه فنان لوحاته السيئة. سألت صاحبه مرة عن معايير تعليق اللوحات فقال : «لا معايير. هناك شرط واحد فقط : أن لا تكون اللوحة أسوأ من ورق

الحائط».

لكن للمخرج لوناً آخر، وبالأخص ليلاً : طاولات خشبية فظة، وعلى كل طاولة مصباح «كاز» بإضاءة صفراء وحمراء شاحبة، ويبدو المكان موحياً، وشبحياً، وأميل للإصفرار. عندما كنت طفلاً لم تكن توجد في قريتنا كهرباء، وكنت أقرأ وأكتب على شعلة مصباح «كاز»، مما جعل المصابيح وألوانها تسكن في أغوار اللاوعي عندي. وبدا، سراً، بأن الأصفر والأحمر، أي الإضاءة الشبحية هذه، يربطان طفولتي بـ «المخرج الأخير».

لا أدري ما هي ماهية هذه الجهة الصفراء في روحي. مرة قالت لي رسامة بأن الأصفر «لون الخوف». ومع النقشبنديين حق، على الأقل في حالتي : الأصفر لون شعوري بالذنب. حقيقة كانت تسحرني إضاءات الشوارع الصفراء في رام الله، وتحيرني، مثلما كانت تحير هذا البروفيسور الأميركي الذي درّسني الفلسفة في جامعة بيرزيت : دائماً كان يجلس في بلكونة وأمامه شمعة مضاءة ليلاً، مع قنينة نبيذ، مما جعله يفقد بصره لاحقاً، وعادةً ما كنت أراه واقفاً لساعات أمام مدخل البناية التي يسكنها في رام الله ويحدق في مصابيح الشوارع الصفراء، الشوارع الخالية. الأصفر لون الإحساس بالذنب عندي، والخوف. ليل رام الله يبدو لوحة سائلة بالأسود تشقها قناة صفراء.

الأبيض قاحل، الظهيرة في فلسطين بيضاء تماماً، في ضوء الشمس كل شيء واضح، محدد، ولا يوحي بشيء. في الأبيض لا أبدع شيئاً، ولكي تستيقظ القوى الكامنة في أعماق الروح لا بد من غموض ما، مثلاً، اللون القمري، حين تفيض الجبال بالظلال و «تسيح» حدود الأشياء، فأتخيل شجرة السرو قرب المقبرة امرأة كأمي تلبس عباءة سوداء وتحاول ضمي إليها. وكنت طفلاً، مات لي أخ صغير، وكانوا أيامها، في ستينات القرن الماضي، يدفنون الأطفال في أحد الكهوف الرومانية، ويدعونه بالـ «فستقية» (اللون الفستقي للتراب)... دفنوه في «فستقية». قالت أمي: الأطفال لا يموتون بل يصبحون طيوراً خضراء في الجنة، تجري من تحتهم الأنهار، ولم أقتنع. وفي ليلة واسعة ومقمرة وخالية وقفت أمام الفستقية : أردت فتحها وإخراج أخي من هناك. وتخيلت جميع هؤلاء الأطفال الموتى يخرجون منها مكفنين بالبياض، ويسيلون في ضوء القمر، ويسيرون في الجنائن بين ظلال الزيتون والصمت. اللون القمري دليل على يقظة قوى الخيال التي تعيد صياغة العالم، على ما هو أنثوي فينا، على «الربة البيضاء» التي جعلت زرقاء اليمامة تكتحل بنثار الحجر الأسود.

في فلسطين لون الذاكرة قمري، فالقمر هو الضوء الوحيد في الليل الذي يكشف معالم الأشياء للفلاحين. الضوء الآخر هو «السراج» : به تضاء قبور الأولياء المقدسة.

ولقروي فلسطيني مثلي لا يمكن فهم الغربة، غربته عن العالم أو نفسه، إلا بفهم انتقال الثقافة الفلسطينية في القرن العشرين نقلة ضوئية : من القمر – السراج إلى الكهرباء، مثلاً للنيون. النيون أبيض، يشبه القيح، لا يطاق، بارد ، ويبدو أنه يدمر الدماغ، شمس

من كهرباء.

غريب كم يبدو المكان كمصيدة. وجدتني أتنقل بين هذه المقاهي الثلاثة، وأبحث عن نفسي، ليس في الكتب، لقد سئمت كل الكتب، بل في المقاهي، بين المشبوهين بالجنون، والشواذ، والصعاليك، حيث الخرائط أكثر دقة ووضوحاً وإثارة، أو، على الأقل، لأنني من هؤلاء. لم أتكلم مع أحد لتسعة أشهر. لم أكن أعرف أحداً. وكنت أمشي حتى الصباح في الغابة المحيطة بالجامعة. ولكن الله كان يحيطني بكل عالم الهامش هذا، بكل جاذبيته.

في ممر في الغابة الصغيرة حول الحرم الجامعي رأيت شخصاً بلحية طويلة تصل خاصرته، بيضاء تماماً، وبوجه متورد من الخمر، يبتسم لي بفرح وكأنه يرى بشراً لأول مرة في حياته، شخصاً فرحاً للغاية، يجلس على درج من الحجر ويسكر مع قنينة «فودكا». طلب مني دولارين. «من أنت؟» سألني. «أنا حسين، اسمي حسين، وأنت؟». «أنا الله ! » قال. ضحكت. «وماذا أتى بك للأرض؟». قال : «لي صديقة في سياتل». وضحك ببراءة . «أهلاً»، قال.

بالقرب من هذا الذي يعتقد بأنه الله، محل للألعاب الكهربائية لمن يعتقد بأنه بشر... كل أشكال العنف التي خلقها الله أو عبيده موجودة في تلك البناية ذات الهيكل المعدني : كراتيه، سباق سيارات، قصف مناطق، مقارعة أشباح، غارات جوية. كنت أجلس فيه وأراقب رواده. لاحظت شخصاً بالذات يأتي بانتظام، في ساعة محددة، الثانية عشرة ليلاً، وهو يرتدي «لباس المارينز»، وقفازات عسكرية، وينتعل حذاءً عسكرياً، ويؤدي كل طقوس الطيران، ثم يجلس ويلعب بجدية كاملة : لعبته قصف «العالم الأحمر»، أو «امبراطورية الشر»، التسمية التي كان أطلقها الرئيس الأميركي، ريغان، على الشيوعيين أيامها. وكل شخص هنا تتلبسه أفكار أخرى مثل هذا الشاب الأسود الذي اقترب مني بحثاً عن مشاكل، لا لشيء إلا لأن شعري طويل وأشقر، وهذا بالذات أثاره، فلمس شعري باحتقار وقال بأنه حلو.

كل فرد في العالم يقاتل أشباحاً خاصة به، وهذا شاب يسكنه شبح «أبيض» وقديم، من أيام اصطياد السود من إفريقيا وبيعهم في «العالم الجديد». قلت له (أو للشبح الذي في ذهنه) : «لست من أميركا، ولا أبيض. أنا من فلسطين». توقف عن السخرية وذهب. مشكلته «البياض في العالم». له صديق كبير البطن، بأنف مفلطح مثل الفقع، وقبيح ككل، ببسمة مواربة، جلس قربي وقال – عندما عرف أنني عربي – إن العرب ليسوا من افريقيا، وأنهم مستعمرون غزوها واستوطنوا في شمالها، والحل أن يخرجوا من القارة. وقال بأنه «قومي إفريقي»، قلت بأنني من فلسطين، ولم أدخل قارة إفريقيا، حتى العربية منها، ولا مرة في حياتي. السود نادراً ما يأتون إلى هذا المحل الضخم الأبيض، وإن قدموا تلبستهم فكرة أنهم «سود».

قلت لبنت سوداء وجميلة هناك، مخرجة لفيلم وثائقي لم أره، بأننا، نحن العرب ،

نحس بقلقلة في أغوار هويتنا، فنبحث عن «جذورنا» في الإسلام في القرن السابع، أو في أبعد من ذلك : منا من يرجع إلى جذوره الفرعونية، أو الفينيقية، أو الكريتية، فنحن الفلسطينيين أصلنا مثلما يقال من شعوب البحر التي كانت تطوف البحر المتوسط، واستطونت جزيرة كريت، ومنا من رجع بهويته الآن إلى كريت، قبل آلاف السنين. وهذه الجذور حية رغم قدمها. تخيلي أن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، بعد إخراجهم من بيروت بالسفن في ١٩٨٢ رجعوا إلى أصلهم : البحر. عندما وصلت سفنهم إلى كريت أنزلهم الكريتيون على الشاطئ، وأقاموا لهم ولائم، وقالوا : «أنتم أبناؤنا الضالون». قالت : «مشكلة السود مختلفة. إن حاولنا الرجوع إلى «بدايتنا» في أميركا نرجع إلى العبودية في مزارع القطن، ولا يمكن بناء هوية أساسها أن أكون عبدة في نظر نفسي وغيري.» ربما أن هذا ما قاد أيضاً الزعيم الأسود، مالكولم أكس، وهو في السجن، إلى فكرة أن «الله أسود»، مثلما يقول في مذكراته، فالهوية لونية.

اختفت تلك البنت السوداء بلا أثر في اليوم التالي، ولم أرها أبداً. في عالم الهامش هذا كل شخص عابر مثل مشهد في فيلم. وفيه قد يمر عبقري وقد يمر مدمرو دماغ، أو ما بين بين مثل «جوني».

جوني شاب تكسر سرب من أسنانه العلوية، وبقي السنان الأماميان فبدا لي كأرنب، نحيف وطويل، ودائماً على شفتيه بسمة طيبة. سألته عن نفسه فقال إن امه قتلت، قتلها «الرجال الخضر الصغار» القادمون من الفضاء السحيق. «أين؟» ، «قرب البحيرة الخضراء » (بحيرة سياتل). قلت له كيف تستطيع أن تتأكد ؟ قد يكون قاتلها من الأرض. قال إن الحكومة الأميركية قبضت عليهم واعترفوا. «وماذا ستفعل بهم الحكومة الأميركية ؟ هل ستطبق قوانين الولايات المتحدة على سكان الفضاء السحيق ايضا؟» قال :«لا ! سيبعثون لكل ضحية لهم، مثلي، برجل صغير أخضر منهم، ليفعل به ما يريد». «وماذا ستفعل برجل من الفضاء جاءك بالبريد من واشنطن دي. سي.؟» ابتسم كعادته وأجاب بعد أن أبدى إعجابه بأسناني الأمامية، «سأبعثه للمدرسة في سياتل، ليعرف أن مدارسنا ممتازة، مثل مدارسهم فوق ! ».

واختفى جوني لمدة شهرين، وفجأة ظهر بقبعة كاوبوي في مدخل محل الألعاب، مبتسماً كعادته. ماذا حدث ؟ قال : لا شيء. كنت أمشي عارياً في الشارع فألقت الشرطة القبض علي بدون سبب، مجانين ! وتأرجح رأسه من شدة العجب من غرابة سلوك الشرطة.

كان جوني ينام في أماكن محددة، قرب جذع شجرة مثلاً، وأحياناً يستولي مشردون آخرون على مكانه. هذا هو جوني : إنسان بلا مكان كون لنفسه هوية «متخيلة» : رواية عن فقدانه لأمه، وعن صلة فقدانها بمخلوقات خضراء من الفضاء السحيق. مرات، تحت تأثير المخدرات، كان يتخيل ديناصورات تنظر إليه من بين أعالي شجر الغابة، ويحيا

بعمق في عالمه المتخيل. ومن أنا ؟ شخص يصر على أن له «هوية حقيقية» ؟ لم لا أنحت رواية، محض خيال، عن «جذوري» ؟ وما الدليل أن جذوري «حقيقية»؟

جوني كائن خفيف : لا يحمل تاريخاً. أما مواليد برج حوض البحر الأبيض المتوسط من أمثالي، فهم ورثة الثورة الصناعية واستئلاف الماشية في العصر الحجري، ورثة أقدم ثورة في التاريخ، وورثة نشوء القرى والمدن. وتلبسني هذا التاريخ السحيق، ولدت في قرية، وذاكرتي قروية ، وبابل ومصر إرثي، أما أشكال جوني فلا ذاكرة لهم إلا «المدن الكبرى» الحديثة. لا يعرف ولم يسمع بشيء يدعى «قرية» أو «فلاحين». الحضارة الأميركية البيضاء مثل جوني : بلا تاريخ يذكر، خفيفة. التاريخ في البحر المتوسط عميق وثقيل. في أميركا «سطحي»، وإلى حد ما ضحل. أشعرني جوني بأني من عالم آخر، من نفق في الزمن يمتد إلى العصر الحجري، لست ابناً اصيلاً للمدن الكبرى.

لجوني صديق ألماني حليق الرأس، لوطي ولطيف، يربط جبينه بمنديل أحمر، وذكي جداً. التقيت به في محل الألعاب الكهربائية قال عنه «هذا محل يبيع جنساً وتخيلات، وهذا يخدم النظام القائم». دقيق : قلة تنتبه لـ«تجارة الخيال» هذه. سألته عن عالم «الهامش» الذي يحيا فيه، فقال : «الحواف متوترة». «أية حواف؟» «الحواف على جانبي السياج الذي يفصل العاديين عن المشردين ! ». أعجبني التعبير : «السياج».

غريب كم يبدو المكان كمصيدة، أحياناً. كنت عاقلاً، ومثقفاً، وطالباً في الدراسات العليا ، وكل شيء يبدو على ما يرام، وفي داخلي صحراء فيها كائن قاعد على ركبتيه في الفراغ و «يأكل قلبه»، كما يقول شاعر إنجليزي، فسألته «هل هو مرّ ؟ قال مرّ جداً يا صديق».

سينماتيك «الوهم العظيم»، سخرية مني. كل حياتي وهم صغير، كنت أدرك ذلك، لكن كونها «وهماً عظيماً» اقتراح جديد. مقهى صغير له درج صغير، وحول السقف، من الخارج، مظلة استحالت من المطر والزمن إلى خشب كالح فهي تمتزج الزرقة والخضرة بالرمادي، وتحتها، أعني المظلة، مقاعد من خشب أشد كلاحة وقدما. وعلى مقعد كهذا، منه تبدو خيوط المطر مثل قضبان زنزانة تسقط باستمرار، التقيت بسوزان، حطام امرأة من بقايا حركة السيتينات الثورية، مريضة، ووجهها ناضج، بشفاه حمراء عريضة وشهوانية، ويحمر من الخجل كبنت صغيرة، ومطوق بمنديل أبيض، وإن حركته تحركت غدد من الشحم تحت ذقنها. لا صديق ولا أم ولا أب ولا أصدقاء، وكل ما تملكه دفتر رسم أبيض ، ترسم فيه دائماً طاووساً أزرق، وتعيد دائماً نفس الرسمة. كانت جالسة هناك عندما نظرت إليّ بدقة وقالت : «أنت تحيا في داخل رأسك». صدمتني دقة الجملة : «أحيا في رأسي»، أي لست حتى نصف حيّ. أي فيّ صحراء أو جثة، لا فرق. من الخارج كنت مرحاً، واثقاً من نفسي، وأفيض بالحياة، أدعي ذلك أو أتظاهر به. ولا أدري أين نفصل بين الإنسان وبين ما يدّعيه عن نفسه، ويتظاهر به.

دعوتها إلى بيتي. ولبيتي جدار من زجاج، وبين الكتب على رف يلتهم نصف الجدار

الآخر غصن صنوبر عثرت عليه في إحدى جولاتي في الغابة ليلاً. قالت مع ضحكة ساخرة « غصن صنوبر بين الكتب؟». قلت ضاحكاً بأن «فيه حياة». هزت رأسها وهي تدخن وعلقت : «تناقض». وفهمت ما لم تقله : من فيه حياة فعلاً لا يحتاج إلى غصن صنوبر من الخارج ينشر فيه حساً بالحياة.

لم تكن تعرف بعد شيئاً عن خوفي من الجنون، ومن اقتراف جريمة، ولم أكن أدرك كم يوجد من الرعب تحت «التظاهر بأنني عاقل». عندما حدثني المخرج السينمائي صبحي زبيدي – الذي زارني في سياتل – عن صديقته النيويوركية، المحامية، فقال : تعتقد اعتقاداً جازماً بأنها مجنونة، والبرهان على ذلك، عندها، «أنها تعتقد بأنها عاقلة»، فهمت شيئاً عن العقل كصمام أمان أمام رعب داخلي خفي. ما الفرق بيني وبينها ؟ لا شيء ! أنا خائف من الجنون يتشبت بالعقلانية ، وهي عاقلة تتشبث بالجنون ، وكلانا يريد النجاة من شيء خفي.

مثلما قلت : كنت أبحث عن حل، في عالم الهامش هذا، عالم سوزان وجوني، فانتهيت بكنيسة! لا أدري هل ظلمت هذه الكنيسة بتصوراتي عنها أم أنها كما رأيتها، أعني لم أكن في حالة تسمح بفهم دقيق للأشياء. وهذه «روايتي» عنها:

في «اليونفيرستي أفينو»، شارع الجامعة، مررت بباب بناية أمامه فتاتان واقفتان وتوزعان «استمارات» على المارة، وجهان أبيضان، من هذا النوع الذي يميز الطبقة الوسطى الأميركية : لا يمر فيه شيء يعكره، وجهان جميلان جمالاً محايداً، لا تعبره حمرة من الخجل أو صفرة من الخوف، أو رغبة، وجهان يذكرانني أيضاً بأبي الهول : أبيدت أجيال قدامه ولم تتغير ملامحه ! لم أستطع المشي بعيداً، كنت خبيراً في قراءة الوجوه ، ولم أستطع فهم ما رأيته فرجعت نحوهما.

قالتا أنهما من «كنيسة الديانتيك».. دخلت الباب معهما وصعدت درجاً. في الطابق الأول مكتب خلفه امرأة لها نفس البياض والجمال المحايد، نسخة عن الفتاتين، وأمامها علبتان فارغتان عليهما أسلاك موصولة بجهاز كهربائي بدائي. طلبت مني أن أمسك بالعلبتين، كل يد على علبة، وأن أجيب على أسئلتها، وأنها، بمساعدة الجهاز، سترسم لي خارطة بـ «الدمار» الذي في حياتي ... لفتت نظري كلمة «الدمار». هذه تهمة، إيحاء ذكي بأنني «مدمر»، ولا أفهم «دماري» إلى أن أنقذتني هذه التنكة الصغيرة التي أمامها. بدت القصة كنكتة. لكن، عندما نظرت إلى نفسي، رأيت «دماراً أكيداً» : خوفاً من الجنون، مثلاً، قلقاً. وفكرت بأنها «إنسانة صغيرة»، من هذا النوع الذي قال عنه رايش «إن الإنسان الذي يعرف نقاط ضعفك يا صغيري ويستغلها إنسان صغير مثلك». كلماتها تستغل نقاط ضعفي، مخاوفي من الجنون، قلقي، فلقلة هويتي، ومن ذا الذي لا توجد عنده مخاوف قابلة للعب بها؟

أمسكتُ باليد اليمنى تنكة وباليسرى التنكة الأخرى. وبدأت تسألني عن نفسي. وفي

نهاية الجلسة ناولتني خارطة بـ«الدمار» الذي فيّ، «دمار مفصل». وكان من الواضح ما هي الخطوة الأخرى : الكنيسة مَن سيخلصني من خرابي، بمساعدة «التنكة». قلت كم يكلف الخلاص ؟ قالت هناك دورات بعضها يكلف أكثر من خمسين ألف دولار ! ولما ضحكت من هول المبلغ قالت تستطيع الإنضمام لدورة تكلف حوالي خمسين دولاراً. كتبتُ لها شيكاً، فبعثتني إلى مكتب آخر خلفه رجل قمحي اللون، وفي وجهه أخاديد بدت من بقايا مرض قديم، ولكن وجهه كان هادئاً، محايداً، وعليه نفس الحجاب الذي يغلف الوجوه الأخرى. قال إن «كنيستنا تجذب العقول الأكثر رهافة وذكاء»، فأنا، إذن، مدمر عند المرأة في المكتب الأول وذكي ومرهف عند المكتب الثاني، اتهامات بالدمار يتلوها مديح لنفخ الزبائن ؟ قررت أن استفزه لأدرك سر هذا الحياد على كل الوجوه في البناية، وكأنني أمام نسخ تتكاثر في مختبر، فقلت له إنني «فاصلت» المرأة التي عند المدخل على «سعر الخلاص». استفز من اتهامي للكنيسة بالتجارة بمخاوف الناس. احتقنت بالأزرق عضلة على زاوية فمه اليمنى، وتراقصت بلا وعي، وكأن غضباً مكبوحاً من ثلاثة آلاف سنة ارتعش فيها، وكأن بقعة وحيدة، منعزلة، تشوهت تماماً، في وسط هدوء ما ورائي للوجه. ولو ركزت النظر في هذه البقعة فقط، لرأيت وجهاً يشبه قول نزار قباني : «وتدهورنا إلى القاع قطارين معا، وامتلأنا بالشظايا والكسور وتشوهنا تماماً مثل مخلوقات ما قبل العصور».

وخطرت في بالي فكرة «مسح الدماغ» : هنا الهدوء على الوجوه هدوء ممسوحي أدمغة، ليس جمالاً. لا أخفي أنني شعرت برعب ما من «مسح دماغي»، من التحول إلى دمية في يد مسؤول خلف مكتب يوجهني بجهاز تحكم عن بعد. لكن قررت المغامرة. ودخلت «دورة».

بدأت «الدورة» في صالة واسعة ومرتبة جيداً. التمرين الأول. مدرب شاب في أواخر عشريناته، بوجه ممسوح كالبقية، يتكلم بصوت لا تتغير نبرته أو سرعته، مع وقفات محسوبة بين جملة وأخرى، وكأنه تلقى دورة في التنويم المغناطيسي، وصوته أبيض، فيه حياد يشبه وجهه.. أمسك بكرة تنس صغيرة وأمرني أن أعيدها إليه فقذفتها نحوه ثانية. «هذا يدعى اتصال بين الناس.. الكلام كالكرة، عندما لا ترجعه ينقطع اللعب.» تمرين مفيد، يوحي بأنني طفل في الصف الأول.

تمرين ٢ : جلوس على كرسي وإغماض العينين : «لا تفكر في شيء، فقط كن هنا، اسمع كل الأصوات خارجك، استرح ! «. تمرين مفيد آخر. قضيت أربع ساعات مغمض العينين و «أصغي» للخارج. وتواصلت التمارين يوماً بعد يوم. لا مكان للحديث «الشخصي» مع المدرب، كان وكأنه ينفذ مهمة لا دخل له فيها. فقط بعد مداورات كثيرة نجحت في جره للكلام. وسألته متى ولد؟. كان جوابه صدمة : «ولدت قبل خمسة آلاف سنة في منطقة بابل، وانتقلت روحي من جسد إلى جسد حتى حلت فيّ الآن.» لم يكن هذا

إيماناً بريئاً بفكرة التناسخ، بل مسح دماغ، لقد غيّروا هويته نفسها. فهو الآن ليس من سياتل، مثلاً، هو بابلي الآن، وراء الموت، ووراء حدود الزمان والمكان، غير قابل للموت فعلاً. فهمت بعدها أنه يعتقد بأن الزمن يتكون من «دورات»، كل دورة قد تستغرق قروناً، وفي نهايتها يموت ثم يبعث من جديد في الدورة الأخرى. واضح : مسح هوية : عند نهاية الدورة سيقول له «مسؤول» كبير ما بأن دورته انتهت، وعليه أن ينتحر، أن يموت بطريقة ما ربما سيحددونها له أيضاً، ليولد في «الدورة الأخرى». إن شعر «مخلصوه» بأنه يعرف أكثر مما يجب، سينحرونه بكلمتين «دورتك انتهت»، فينتحر بإرادته.

ربما سيمسحون هويتي القديمة هنا، ويعيدون تركيبها لكي «أولد في القرن الرابع قبل الميلاد» في بابل أو نينوى أو أثينا ! هل تقوم أجهزة مخابرات معينة بتمويل التجارب على مسح الدماغ ؟ مهما يكن الأمر، شعرت برعب من فقدان العقل لم أشعر به من قبل. تركت الكنيسة، ولاحقتني لمدة طويلة بعدها بمنشوراتها وكتب مؤسسها «ألن هوبارد»، وبأشخاص منها يريدون مقابلتي، حتى كدت أزهق روحي نفسها. أحياناً اللطف مع الناس جريمة ضد النفس.

كان وكأن قدراً ما يوجه خطاي دائماً نحو أمكنة تبدو كمصيدة، نحو الأمكنة الخطأ، حتى شعرت بأن حياتي كلها مجرد انحرافات متوالية عن «حسين الحقيقي»، عن حياة من المفروض أن أعيشها، ولكنها تفلت مني باستمرار، فأواصل التسكع ليلاً حتى الصباح في غابة الحرم الجامعي وأفكر، أفكر، أفكر.

ذات مساء ، وعلى أشجار عالية، كانت عشرات من طيور سوداء تزعق زعيقاً قبيحاً. وفجأة بدأت تغوص عليّ، وكأنها ستفترسني، وتقترب مني إلى حد تكاد عنده أن تضرب وجهي بأجنحتها، فألوح بيدي في الهواء، وبدوت سخيفاً في نظر نفسي، وكأنني في فيلم «الطيور» لهيتشكوك..

بعدها تعرفت على صديق لسوزان أسوأ من الطيور، صلب البنية والوجه، يدخن ويقذف البصاق من فمه، ويلبس ملابس ذات ألوان فاقعة، برتقالية وصفراء وحمراء، وسر ذلك أنه من أعضاء «طائفة راجنيش».

وراجنيش هذا هندي جاء إلى أميركا مبشراً بالنشوة والبهجة والتنوير والرقص، وتكونت طائفة خلف هذا «المعلم»، تلبس ألوان النشوة والبهجة والتنوير والرقص. وكلهم متشابهون كوجوه كنيسة الديانتيك ولكن في البهجة والنشوة والتنوير والرقص، ويكتب قمامة شعرية محشوة بمفردات البهجة والنشوة والتنوير والرقص، وسر ذلك أنه أناني مطلق، فردي ضيق الأفق، غاضب، ولا يشعر بأي شيء من البهجة والنشوة والتنوير والرقص، ووجوده زائف أكثر من وجودي، وبالتالي مدمن على المخدرات. سكن معي ليومين فقط وطردته

كنت أسكن في «ستوديو» : نصب في وسط الأستوديو قطعة قماش صفراء على

برتقالي على أحمر فيها بقع متسخة وتفوح منها رائحة البخور والطيب الهندي ، لكي تتغلغل في روحه النشوة والبهجة والتنوير والرقص، وصار يمنعني من المرور عبر «ستارته» لأي مكان آخر. هناك من هم مصابون بإمساك كوني، وإسهال شعري، ولا يعرفون بأن المشكلة في شعرهم ليست في شعرهم، بل في خراب علاقتهم بالكون والحياة، ولا يوجد أي «راجنيش» يمكن أن يغيرهم، أو يغير شعرهم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تعرف على فتاة ضائعة من شيكاغو، هجرت عائلتها، مهزوزة مثل شبكة تنس، سكنت معه ومعي. قالت لي بأنه لوطي لا يهتم بالجنس معها، وفهم من ذلك أنها تميل إليّ، أي أنني لا أشعر بالبهجة والتنوير والنشوة والرقص، أي لست من أتباع طائفته فهاجمني، فطردته.

في «الوهم» كنا نلتقي، كل هذه الأشكال. قالت لي سوزان مرة وهي تحدق في خيوط المطر النازلة كقضبان زنزانة، «نحن لسنا من لحم ودم، جئنا من الروايات وإلى الروايات نذهب ! أكتب عنا رواية يا حسين، نحن رواية.»

ولا تكتمل حكاية من دون «دون» : رسام مشرد بلحية حمراء فاتحة، وصلعة صغيرة عليها قبعة بيريه رمادية. كائن شفاف وهش، وأنعم من دمعة، وقبل أن يتكلم يرسم بلحيته شبه دائرة على صدره، بحركة بطيئة، وكأنه يقاوم قوة مكبوتة تمنعه من النطق، وصوته مثل صلاة. ما زلت أذكره واقفاً يلعب البلياردو في حانة القمر الأزرق، وذلك الصوفي من قونية يمط رقبته نحو «دون» قائلاً : «أنا لا شأن لي بغيري.» فيرد دون : «إذن، إذهب وكن قنديل بحر» (سمكة شفافة تشبه القنديل وسامة جداً). فيلف الصوفي سيجارة تبغ ويتمتم : «إن الله يتكلم».

ليلتها جاءني دون إلى بيتي : لحيته تقطر مطراً، وهيئته يرثى لها، وفي يده حلقة خشبية متسخة ومبلولة. حسبته جاء لينام عندي فدعوته للدخول، فناولني حلقة الخشب قائلاً :

– «إسحاق لاؤور: خيبة المثقف الطليعي هذه هدية لك، وجدتها في صندوق قمامة.»

\ «وما هي يا دون؟»

– «خذها. هذه هي العقل. دائرة من ثلاثمائة وستين زاوية، وبين كل زاوية وأخرى زوايا لا نهائية.»

\ «نعم، زوايا لا نهائية، دون ، ولكن ما دخل ذلك بالعقل؟».

قال : «كل زاوية طريقة نظر للدنيا والحياة، تعلم من هذه الخشبة أن ترى دائرياً، بثلاثمائة وستين زاوية، أقعد في الفراغ الذي في الوسط، وانظر دائرياً، وابق قاعداً في الفراغ.»

واختفى ثانية في العتم والمطر، لينام في الشارع. وبقيت واقفاً في الباب والريح والحلقة في يدي . غسلت الحلقة وعلقتها على الحائط.. العقل «دولاب»، وكلما دار الدولاب

تغيرت طريقتنا في النظر إلى الدنيا والحياة وأنفسنا، وتغيرنا.

بعدها، في صباح ما، طلب مني دون أن يأتي معي إلى الجامعة. «لا، دون، لا، آخر ما أحتاجه مشكلة في الجامعة. تعال، ولكن بشرط : أن تدخل القاعة من باب وأنا من باب ، ولا أحد سيعرف أنني معك أو أنك معي.» حرك لحيته الحمراء دائرياً على صدره وبدا وكأنه يعجن قطعة طين صلبة وقال، «طيب، حسين، طيب، أنا أدخل من باب وأنت من باب».

في القاعة كانت دكتورة يوغسلافية من هذه الأرستقراطية القديمة التي دمرها «تيتو» بعد إقامة شيوعيته في يوغسلافيا، وفي طريقة حديثها من «فوق الأنف»، ورفع رأسها للأعلى كراقصة فلامينغو، لا تزال تسكن المواقف الأرستقراطية الموروثة. وكانت تلقي محاضرة عن تاريخ الأدب العالمي : «أول من استخدم تسمية« الأدب العالمي» كان الشاعر الألماني غوتة، وبعده لاحظ ماركس وإنجلز في «البيان الشيوعي» أن الآداب القومية المختلفة لمختلف الأمم بدأت تشكل أدباً عالمياً واحداً.» فجأة رفع دون يده ، فانتبهت القاعة إليه، وكل العيون غيّرت زاوية نظرها وانتبهت. «هل تعرفين، بأن التماثيل الإغريقية قديماً كانت ترى ؟ كانوا يدهنون عيونها ورموشها، كانت لها عيون، وترى، كالناس، لم تك عمياء، كما تعتقدين، كانت ترى.» لم تدر الدكتورة ماذا يحدث فقالت مرتبكة : «لا أعرف أنها كانت ترى». فرد دون «ألا تعرفين ؟ إذن، اذهبي وكوني قنديل بحر». ولملم قامته النحيفة الناعمة وخرج من القاعة.

مر زمن لم أر دون فيه، حتى اعتقدت بأنه لا يريد رؤيتي. وفوجئت به واقفاً ذات صباح أمام سياج حجري نشر عليه مجموعة من القمامات، من تنكة كولا فارغة وصدئة لبقايا ورقة، ويرتب ويعيد ترتيب «الأثاث» هذا. «مرحباً دون ! ». نظر إليّ : وجهه جائع وشعره منفوش، وعيناه فيهما تعبير شرّيد. لم ينتبه تماماً.« مرحبا، دون ، أنا حسين». «حسين ؟ من حسين؟»، قال بصوت في غاية النعومة والإنخفاض، وشرد وكأنه يحاول أن يتذكر. «حسين !» «لا أعرف أحداً بهذا الإسم.» وضحك من غرابة شكلي ورجع لترتيب قمامته.

دون كان يفقد إدراكه من حين لآخر، لمدة تطول أو تقصر، وفي هذه الحالة، لا يعرف أحداً. كنت أفقد إدراكي مثله، ولكن بحدة أقل ولمدة أقصر.

على كل، عندما أفاق تعرف عليّ ثانية، ولم أذكر شيئاً له لا عن فقدانه الإدراك ولا عن حادثة القاعة، بل شكوت له من الملل من مدينة سياتل. «إذن، فلنغير الجوّ». ودعاني إلى محطة باص ركبناه حتى مدينة أخرى على شاطئ المحيط، ومنه ركبنا سفينة أبحرت بنا لمدة طويلة في زرقة الموج والشمس والزبد والهواء. نزلنا في جزيرة صغيرة فيها غابة أصغر منها. منظر إلهي : اتساع المحيط الأزرق الذي لا يعكره شيء غير «غيتو» بعيد للهنود الحمر، ومقابله قاعدة عسكرية للبحرية الأميركية. الضحية وجلادها معاً. على شفا منحدر صخري يشبه الهاوية، وأنا ممن يخافون الأمكنة المرتفعة، بيت جميل

من الخشب. اتجه إليه دون وأخرج سلسلة من المفاتيح ودخله : صالة واسعة، أثاث بني جميل، مطبخ، مكتبة. «أدخل، هذا بيتي ! » ذهلت تماماً. «دون ؟ أترسم في الشوارع وهذا بيتك ؟ ارسم هنا.» قال: «خذ المفاتيح واسكن فيه أنت ! ». لم أجب. «أنت كأمي : لا تفهم روح الفنان.» وأشار من الشباك نحو بيت آخر، البيت الثاني والوحيد في الجزيرة، قرب الحافة أيضاً. «هذا بيت أحد قادة الحركة الماسونية. النظام في الولايات المتحدة ماسوني.» «كيف؟» قال : «أنظر للدولار : عليه صورة الهرم الأكبر وفيه «عين حورس»، وهذا رمز ماسوني معروف» . لم أجب. ولكن تأكدت في ما بعد أن كلامه دقيق، تاريخياً. «سنقضي الليل هنا.» «هنا؟» «نعم، السفينة لا ترجع اليوم».

يا إلهي ! حاولت تخيل الليل وحيداً هنا، في الغابة والجزيرة وهدير المحيط ! مقدمة لفقدان عقلي. طاقة المكان قوية، وذكرتني بجبل زرته مرة في منطقة «سنوكوالمه» : اسم هندي أحمر. شلال في عرق الجبل يهدر بين الرطوبة والحجارة السوداء، وجبل صعدته لساعات وغابات الشمس ولم تزل أمامي ساعات أخرى لبلوغ القمة. أخرجت قطعة خبز فنزل طائر ووقف على أصابعي وأخذ ينقر الخبز بأمان، كعادة الطيور التي لم تعرف الإنسان جيداً. عندنا، في فلسطين، العصافير مصروعة، تفر من أي دليل على أية إلفة بينها وبين الناس. هنا رواية أخرى. على كل، طاقة المكان، وأنا واقف ليلاً عند الشلال، جعلتني أشعر بأن إقامة ليلة واحدة في عرق هذا الجبل تكفي لكي أبدأ الصلاة لقوى لا أعرفها.

جلست في مقعد جلد أسود جميل في المكتبة، وسألته عن هوسه بالنفايات. «لا بد من أن يزيحها شخص ما من الشوارع، سواء أكان أنا أم غيري». لم اقتنع لسبب بسيط : لم يكن «يكنس الشوارع»، لا، كان ينتقي قمامات محددة، علب كولا فارغة قديمة، بقايا كتاب، حلقة خشب مبتلة، أوراق شجر يابسة، وكأنه «يلملم ما تبقى له من الأشياء»، لأن عالمه صار حطاماً، ويريد لملمة نفسه. سوزان أدركت ذلك، لأنها كانت تحب دون، وحاولت إقناعه بترك «هوايته»، فقال : «وماذا سأفعل بحياتي بعدها؟» . فقلت له «هذه نقطة، دون، نقطة، ولا جواب عليها.» أعني بأن التاريخ يترك الناس أحياناً بلا شيء يفعلونه بتاريخهم.

والتقيت به أيامها، ذلك الصوفي من قونية. قال إنه أصلاً من تركيا، ثم صار أميركياً، «أما الآن، والحمد لله، لست أي شيء.» أول ما رأيته، في الوهم العظيم. كنا أنا وسوزان هناك، هي ترسم طاووساً أزرق مدمنة عليه، وأنا أنظر إلى رذاذ المطر فوق الإسفلت القريب. ورأيته صاعداً نحونا : لفتت نظري طاقته : تشبه الأرض والفقع. لكن هيئته كمحارب قديم من أصل رعويّ : حذاء عسكري ثقيل مربوط جيداً وكأنه في حالة «طوارئ»، ومعطف شتوي أخضر من النوع الذي تلبسه البحرية الأميركية، ويحمل عصا برية، فظة، فيها عقد، خارج السياق تماماً. أسند عصاه على المقعد الخشبي وبدأ يلف سيجارة تبغ تركي

من نوع «عثمان». أصابعه بيضاء ، ناعمة، فيها أنوثة، وترك الدخان على رؤوسها صبغة تشبه الحناء، ولكن الشعر على يده غزير، وأسود، وفيه رجولة. وكأنه تناقض في التعبير. أعني لا يمكن جمعه إلى بعضه ليكون شيئاً واحداً.

جلد وجهه قمحي، فيه أخاديد عميقة وقاسية كمن تعود العيش في البر والشمس، وله شارب أسود مستطيل وحواقهُ مهشمة، ولا تستقر العين لا عليه ولا على الشفتين العريضتين تحته لأنها تصعد لا إرادياً إلى أنفه : ضخم ومتقوس ويهيمن على الوجه كله. صوته فيه عمق البحر، وحرية الهدير، وجنون آخر. عرفتني سوزان عليه. «بري، اسمه بري.»

«كتبت قصة صغيرة، سوزان، ولو كنت مكانك لأحببت الإستماع لها.» ضحك، وفتش في جيب معطفه وأخرج ورقة مبتلة ممزقة : «وأنا عائد اليوم إلى بيتي التقيت بصديق قديم : أرنب. قلت له تعال معي، عندي هدية فخمة تليق بك : جزرة. » كان يضحك بعمق ويقرأ بلذة، وفجأة قام بحركة غريبة سأراه يقوم بها مراراً : بدا وكأن شيئاً، شبحاً ما، ظهر له، وارتبك ، وركز نظره في نقطة في ذهنه، ورمش بسرعة وخوف عدة مرات، وهز رأسه بعنف هزات خفيفة، وبدا أن بصره كان مشوشاً، ولا يبصر الورقة التي في يده. كل الحركات استمرت لثوان فقط. وأكمل ضاحكاً بعدها وكأن شيئاً لم يكن : «قفز على طاولتي وأكل الجزرة، وثرثرنا، ثم نزل تاركاً لي كوم خراء وراءه. ولا أي حس عندك بالخجل يا رجل ؟ أجابني : لا تأخذ من الدنيا إلا الذي تعطيه لها.»

جرحت «عقلي الجمالي» كلمة خراء. غريب كم بدت وكأنها بقعة من ضباب أصفر انتشرت في الجو وفي جسدي، ولم أنتبه حتى له ولسوزان، وكأن هذه اللفظة تحكمت أيضاً بما أنتبه ولا انتبه له.

عندما تناول عصاه ومشى فقط انتبهت. استدار بعد خطوتين وقال لسوزان «مري على بيتي يوماً ما». دعوته بدت جنسية، وإلا لماذا استثناني ؟ وكأن سوزان أرنب تبحث عن جزرة أخرى عنده، واحمر وجهها من الخجل. وأكمل «مري يوما ما، عندي قهوة ! « وفرطنا جميعاً من الضحك. ومضى.

رجعت سوزان ترسم طاووسها الأزرق في مساحة فراغ بدت من ضوء المساء الخافت مقمرة، والزرقة أخذت بعداً آخر، وانعكست في المساحة المجاورة. نظرت نحوي بدون أن ترفع رأسها وقالت : «عند بري أبعد مما يبدو لك.» ولم أدرك أن هذه نبوءة.

في صوته أعماق بحرية، وصدى هدير ذكرني بليلة كنت مشيت فيها حافياً، والرمل مبتل، على شواطىء عكا. كنت دخلت عكا بدون تصريح عسكري إسرائيلي، خائفاً أن يقبض البوليس عليّ بتهمة التسلل، وعلى بقعة في الرمال أمامي أضواء باهتة تأتي من شبابيك مطعم، وكأنها تنوي كشفي، فهربت لمراقبة بقع من الزبد المتلاطم تبدو مقمرة، غامضة، بدوامات تتكون وتنهار في وسط موج أسود غامق منه تبزغ وإليه تعود. وبدا

لي فم بري وهو يضحك أشبه ما يكون بهذا الزبد. وذكرني هذا الزبد بزبد آخر في بحر آخر في زمن آخر.

في ستينات القرن الماضي في بيروت قالوا لأمي بأن القشرة في شعر أختي الصغرى لن تزول إلا إن غسلت بماء البحر. ذهبنا أنا وأمي وأختي إلى «الحمام العسكري»، في المساء. كانت الظلمة تهبط بالتدريج ويزداد ميل البحر إلى الأسود، وكان البحر هائجاً، والموج يصدم الصخور الكبيرة ويتطاير منه رذاذ قمري اللون بارد. نزلنا على منحدر ترابي حاد ثم على أول الصخور. وقفت أمي أمام البحر بخوف، وتردد، ومسحت أبعاده بشرود : لا أحد على الشاطئ، كشفت خمارها، ومشت نحو قناة صخرية ضحلة بالكاد يصلها الماء. قرفصت وغمست يدها في القناة ودهنت شعر أختي، أما أنا فقرفصت قربها، وظهري نحو البحر، وانهمكت في محاولة الإمساك بسمكة صغيرة تنط وقد حشرها القدر في قناة معزولة. فجأة صرخت أمي صرخة فيها رعب حيواني، وشعرت بيد تقبض على قميصي من الخلف، وموجة تغمرني حتى الخصر. سحبتني يد أمي من البحر، وجرتني نحو المنحدر ، ولما اطمأنت تركتني لتسكت بكاء أختي في يدها الأخرى. كنت أشعر بالخوف في رجليّ، وبالكاد أستطيع صعود المنحدر، فنظرت إلى الخلف، وبدا وكأن البحر سيلحق بي.

ليلتها حلمت بالبحر يطاردني، ولسنوات تكرر نفس الحلم. قالت لي أمي أن أضع ورقة من القرآن الكريم تحت رأسي لـ «إبعاد الشر». وضعت «سورة مريم» تحت مخدتي، ثم سورة «يوسف»، ثم القرآن بأكمله، وظل البحر يطاردني.

لم أكن قد رأيت البحر قبل ذلك إلا مرة واحدة في بيروت، صيفاً. اتساعه، هديره، زرقته، تكراره. ذهلت. ولم أقترب منه. كنت طفل جبال فظاً، وفيّ خوف الجبل من البحر. وقفت بعيداً، في آخر رمال الشاطئ من جهة اليابسة، على مسافة منه، وتعريت تماماً، كما ولدتني أمي وجلست على حجر وملابسي في يدي، وحدقت فيه. شمس ملتهبة في عز الظهيرة، ورمال بيضاء تلمع مثل مرايا على وشك أن تغلي، وأنا أراقب البحر من بعيد ، وفي داخلي حذر اليابسة من الماء.

مثلما قلت، كنت أحلم بالبحر يطاردني . يبدأ الحلم - الكابوس ليس من «الحمام العسكري»، حيث كدت أغرق، بل وأنا على الحجر وملابسي بيدي. ترتفع الزرقة بالتدريج، وكأن البحر يدعوني إليه، فأهرب خطوة للخلف، ويهيج، فأهرب، ويلحق بي. وتغرق بيروت في الزبد والزرقة المتلاطمة والهدير، شارعاً شارعاً، أبنية تهوي، وأخشاب تطفو، وغرقى. وفي وسط الدمار وحش هائل الحجم، الـ«كينغ كونغ»، الذي كنت رأيته في فيلم في «سينما كارمن»، يسحق الأبنية بقدميه كدمى من الكرتون، وأمي تتلوى في يده، وهو يمسك بها من خصرها، ويرفعها لزرقة السماء، ولا تفلت منه، فأستدير وأهرب، أهرب، ليس نحو الجبال في «عاليه»، أو نحو جبال الأرز الشهيرة في لبنان، بل نحو

جبال طفولتي في رام الله. وينتهي الكابوس دائماً هناك : وأنا واقف في أعلى جبل، كل الجبال الأخرى غرقت، ولا جبل واحدا في الأفق، ولا أفق أصلاً إلا مياه عكرة فوقها بقايا أخشاب وطيور ميتة وغرقى، والبحر هادئ، لا حمامة نوح ولا غصن زيتون، ولا يابسة في المدى. وأنا الناجي الوحيد، وعلى البحر أن ينتظر نزولي فيه، لا أن يأتي إليّ. بيننا لم تزل نفس المسافة. في الحلم التالي يكون البحر قد رجع إلى مكانه، وأنا إلى مكاني، وكأن شيئاً لم يكن. أنا على الحجر، وترتفع الزرقة بالتدريج، ويتكرر الحلم، في شبه حركة دائرية لا تنتهي أبداً.

كان أبي يخاف عليّ من شيئين في بيروت : البحر والسينما. في الليل أنتظر حتى ينام أبي، وأفتح شباك غرفتي وأقفز منه إلى ساحة بلاط واسعة ومغلقة، ومن بابها الزجاجي أخرج نحو مدخل مزين بأشكال هندسية إيطالية من الجبس والزهور، وأنزل درجاً من رخام أسود وأبيض، وأركض في الشوارع الخلفية الخالية إلى «سينما كارمن».

يبدأ العرض في العاشرة ليلاً حتى الواحدة صباحاً. كنت أدخل القاعة قبل أي إنسان آخر. لأراقب الحضور، وامتلاء المقاعد بالتدريج، وأهم من الفيلم أن أشاهد الستارة تنزاح عن شاشة سحرية فارغة يشع منها نور خافت. كنت أرغب في «لمس» هذه الشاشة السحرية، ولا أصدق أنها من «مادة عادية»، ففيها رأيت حتى يوليوس قيصر.

في باب السينما عادة ما كانت تجلس قارئة بخت شيعية بملابس سوداء، أمام صندوق خشب عليه أرنبان هنديان صغيران : أحدهما أسود («فأل شر»)، والآخر أبيض («فأل خير»). في سطح الصندوق شق فيه قصاصات ورق مطوية ومكتوب بختي في إحداها. تقبض على أرنب من عنقه وكأنها ستخنقه، فيفتح فمه، وتدور به فوق قصاصات الورق، وحين ترخي قبضتها يمسك بفمه قصاصة وتناولني إياها. وعادة ما كنت أمر على قارئة البخت هذه قبل دخول القاعة.

في ليلة لا بخت لي فيها على ما يبدو استيقظ أبي ولم يجدني، بل وجد شباك غرفتي مفتوحاً وسريري فارغاً قرب الساحة الواسعة، فاعتقد أن عصابات الأطفال اختطفتني، وجن جنونه.

والآن، في سينماتيك «الوهم العظيم»، ذكرني حديث بري عن الأرنب بهذه الحادثة، ولكنني اخترعت بخيالي تكملة للقصة : جاء أبي أثناء العرض إلى السينما بحثاً عني، فوجد قارئة البخت عند الباب، وسألها إن كانت رأت طفلاً أشقر الشعر في العاشرة من عمره يدخل السينما.

العرافة : قلت لي وليد صغير؟

أبي : أي نعم يا خالة، وليد صغير، وليد جبال، ولكنه يستيقظ فزعاً كل ليلة وهو يحلم أن البحر يطارده. أرأيته؟

العرافة : وليد جبال والبحر ساكن فيه؟

أبي : أي نعم يا خالة.

العرافة : فأل خير ! سيسافر وليدك بعيداً، بعيداً جداً، في البحر، وهو يبحث عن أرنبين هنديين، وعن صندوق خشب فيه قصاصة ورق تخبره عن بخته، ثم يعود، فأل خير يا خال فأل خير.

ضحكاته ذلك الصوفي من قونية أيقظت فيّ البحر، كما قلت، ولكن حكايته عن الأرنب أيقظت ليس فقط «قارئة البخت»، وأرانبها الهندية، بل وذكرى أرنب آخر.

في أواخر سبعينات القرن الماضي، كنت أعمل في نقابة المهندسين في الاردن، ومعي سمين، عريض الوجه، متدين، بلحية مقصوصة بعناية ومصاب بـ«عقدة العظمة». كان يعتقد بأنه من جلب الخميني للحكم في طهران، وسيزيح السادات عن حكم مصر، ونسميه «معالي الوزير». والطريف فيه هو حديثه الدائم عن أرنب خاص به. مرة كان يتمتم لنفسه «استقال القمر من الحب»، سألته «حب من؟»، قال «حب الناس الطيبين.» «ومن القمر؟». «القمر الذي يحب الأرنب.» «أي أرنب فالأرانب كثيرة؟». «هناك أرنب يسكن في رأس الجبل، وليلاً يدحرج حجارة ضخمة للوادي، نحو بيتي، وبيتي، يا أستاذ حسين، في أسفل الجبل.»

وتصادقنا على أساس احترامي لأرنبه واحترامه لي كأستاذ. حدث أيامها وأن أعدم الحكم العراقي طالباً أردنياً في بغداد بتهمة التجسس، ونشبت أزمة دبلوماسية بين الدولتين، علقت على الحادثة بلؤم أو ببلادة، لا أدري «هل أعدموا الأرنب؟.» وفجأة تحول وجه معالي الوزير إلى الأزرق الداكن، وكأنه يعاني من نقص في الأوكسجين، وشمر عن ذراعيه وجاء إلى مكتبي : «يا أستاذ حسين أنت حمار ! تتكلم بلا أدب عمن هم أكبر سناً من أبيك ! .» «متأسف يا معالي الوزير. متأسف.» ولم ترجع صداقتنا إلا حين سألته بعد يومين «كيف كانت حال الأرنب الليلة؟». فقال «كان هادئاً ولم يدحرج ولا حجر ! ».

لم أكن مهتماً فعلاً ببري وعالمه، ولا أدرك أن له «عالماً» أصلاً، لولا حادثة بسيطة قلبت المعادلة.

كنت ألعب الشطرنج جيداً في يوم من الأيام، وأدمنت على اللعبة، وصرت «مقامراً». هناك نوع من الناس، مثلي، يدمن كل ما يقع في طريقه، التدخين، أو الجنس، أو الشطرنج، أو السكر، أو جمع النفايات، أو كتابة الشعر، أو اللقاءات مع صوفي، وحياته مسلسل من هذا النوع، إدمان في إدمان. لكنني كنت أخرج من إدمان إلى آخر، وفقدت حب الشطرنج منذ سبعينات القرن الماضي، وسواء خسرت أم ربحت لم أعد أشعر بشيء. لاعبت بري بلا مبالاة، فغلبني مرة أو مرتين، وصار يقهقه عالياً سخرية مني، وإعجاباً بنفسه. ركزت في اللعبة الثالثة وهزمته هزيمة ساحقة وسريعة. وضع يده اليمنى تحت أسفل بطنه ورفعه، وتمتم تعويذة غريبة : «بيور بري أوم، أومني بدها أوم.»

سألته «ما المشكلة؟». قال «هم.» «من هم؟». «هم، هؤلاء الذين يقتاتون على قواي.»

جمال لغته ساحر، ولكن فيها نفحة من الجنون، أو كما قال شكسبير هناك عقل في الجنون. ركزت في اللعبة الرابعة ايضاً، وكنت معنياً بأن يخسر لكي أراقب ردود فعله. قام بنفس الحركة المبهمة التي لاحظته يقوم بها في «الوهم العظيم» : حدق في نقطة في خياله، خائفاً، وكأنه يرى شبحاً، وأرجع رأسه للوراء كمن يريد أن يبتعد عن شيء خطر، ثم أغمض عينيه مرتين بسرعة فائقة، وهز رأسه كمن يطرد بعوضة، وفرط ضاحكاً.

«علام تضحك؟؟»

«يا رجل، هناك كائنات مرحة في الداخل أكثر مما في الخارج.»

شعرت بأنه حلزون أحمر في قوقعة من لغز يتسع. عندما خسر لعبة أخرى، تناول قلم رصاص مني، ورسم دائرة في دفتر كنت أحمله، وظل يكرر نفس الرسم حتى لم أعد أرى إلا بقعة رصاصية واحدة، وغمغم «بيور بري أوم، أومني بدها أوم.» ولمعت في ذهني كلمات سوزان : «عند بري أكثر مما يبدو لك.»

كانوا في المقهى يعتقدون بأنه مجرد مجنون، أو منفصم الشخصية كأغلبية رواد المقهى. ولا أدري لماذا شعرت أنا أيضاً بجنونه، وبأكثر من كونه جنوناً عادياً، وجذبني عالمه، كان يجلس قربنا ونحن نلعب ، رجل طويل جداً ، يدعى «وين»، يقفل كل أزرار قميصه حتى آخر زر حول رقبته التي تبدو طالعة من القميص عندها كرقبة فرخ بط وعلى وجهه تعبير دائم من الدهشة. وكان يعتقد بأنني عبقري، ويقفل عينيه عندما أتكلم لكي «يركز»، فاقترحت عليه أن يركز بطريقة أخرى : فتح عينيه. كان «وين»، كلما رأى حركة غريبة أو سمع جملة لبري، ينظر إليّ، ويرفع حواجبه كمن يقول : «حالة فضائية ميؤوس منها».

وكلما سألت بري سؤالاً ما أجاب جواباً يدل على عدم رغبة في أن يفتح لي بوابة أو ثغرة لأي حوار حقيقي. نادراً ما تحدث عن أية ذكرى من ذكرياته، وحتى الآن لا أعرف شيئاً يذكر عن ماضيه. كان بحاراً، وطباخاً، وصوفياً، وطالباً جامعياً، ومشرداً. هذا تقريباً هو كل شيء أعرفه. وحيرني عالمه، كالبحر، وكنت أجلس على حجر في الرمال، عارياً، وطفلاً كما كنت في بيروت، وأحدق في جهات البحر الثاني : أغوار هذا المخلوق. مرت مدة ونحن، أنا وبري، على مسافة، لا هو يفيض كالبحر ولا أنا أهرب كطفل الجبال. نقطة تشبه حركة «فريز» (التجمد في المكان) في المسرح.

في «المخرج الأخير» ينظمون أمسية فنية اسبوعية، يأتي إليها كل من هبّ في ريح أو دبّ في أرض : من شقراوات لفحتهن شمس كاليفورنيا إلى تماثيل مرشوقة بالبرونز، إلى موسيقار كنت أراه ليلاً في الغابة يؤشر لأوركسترا غير موجودة، إلى صائد سلمون من ألاسكا يحمل آلة موسيقية بوتر واحد ولا يعزف عليه أبداً، بل ينقره برفق أنثى من حين لحين ويهمس «ها، ذبذبات طيبة، ها، ذبذبات طيبة».

في وسط المقهى طاولة مستديرة لـ «تشجيع الحوار» بين عوالم من هذا النوع. على هذه الطاولة بالذات تجلس عجوز مشردة، بمعطف قذر وطويل وبلا أزرار، جيوبه

محشوة بورق ممزق، وأمامها دستة من أوراق «التاروت» (لعبة فرعونية الأَصل لقراءة البخت كنت سمعت عنها لأول مرة في قصيدة «الأرض الخراب» لـ: ت.س. إليوت)، وأنفها مدبب كإبرة، وذكي، وماكر، كأنوف الساحرات.

ولا يمكن لي ، ولا لأحد أن يفقه أية كلمة مما تقول إلا عندما يعطيها دولارين وتقرأ له البخت. وباستثناء هذه الحالة لغتها حطام إشارات.

أعطيت العجوز دولارين وقرأت لي بختي : «أنت في طريق بعيد، وستكون حراً». حاولت جرها للكلام عن نفسها، وليس عني، فسألتها «أين أنت الآن؟»، كتبت كلمة واحدة طولها نصف صفحة، كل حرف مربوط بالآخر ثم قالت : «أنا في المسار رقم ثلاثمائة». يا إلهي كيف تتحول اللغة إلى قواقع. هذه حلزون أحمر آخر في حطام من كلام، حلزون لا يراه أحد. لكل فرد هنا قاموسه الخاص. وهذا سبب «سوء التفاهم» الدائم بين زبائن المقهى.

فجأة خطرت في بالي فكرة عبقرية : تأليف قاموس خاص بلغة بري. قاموس أحدد فيه معنى كل كلمة بالنسبة له، وبدون هذا لا يمكن أن أفهم عالمه أو يفهم عالمي، وسيبقى بيننا «السياج» الذي تكلم عنه ذلك اللوطي الألماني. مثلاً، كلمة «أرنب» تعني عند بري «صديقاً قديماً دعاه لجزرة»، وعندي تعني أرنبين هنديين عند قارئة بخت شيعية، وعند «معالي الوزير» تعني أرنباً يسكن ليلاً في رأس الجبل ويدحرج حجارة على بيت معاليه. ونتيجة لتعدد عوالم المعنى لا يمكن لأحد أن يفهم أحداً. سوء فهم شامل. ويمكن أنني لا أفهم شيئاً من كلام بري لأن معنى الكلمات عنده مختلف عن معناها عندي. فاللغة موهوبة في قدرتها على سوء التفاهم. فكرت في «خلق قاموس» خاص بلغته، أحدد فيه معنى كل كلمة في عالمه هو. هذا مشروع أشبه بهذا العالم الاميركي الذي كان يعتقد بوجود لغة خاصة بالسعادين، فقبض على سعدان صغير وحاول أن يعلمه الانجليزية لكي يخدم كمترجم بينه وبين بقية السعادين.

انتبهت على ما يحدث حولي حين بدأ أحد المغنين يغني، ويردد كل المشردين وراءه في جوقة جماعية، أغنية «لونغ ليف أميركا» (فلتعش أميركا طويلاً). نظرت نحو الباب للخروج، فرأيت بري واقفاً، يبصق فتات لفافة التبغ عند الباب، ويبحث عني. التقت أعيننا فجاء مستفزاً جداً، وقال : «يا رجل، جاءني طائرك الأزرق الليلة، امنعه». لم أدر ما طائري الأزرق هذا، ولكني ارتجلت جواباً : «كان في قفصه». «أتقصد أنني أكذب يا رجل ! ». «لا، خرج بدون علمي، سأمنعه». «شكراً، سأقدر هذا». وخرج. سألتني سوزان عن «الطائر الأزرق» هذا، قلت لها «علمي علمك، ولا فكرة عندي». فرطت من الضحك.

بدأت في «تأليف» القاموس. جذبني حديثه عن «طائري الأزرق». ولكن ما معنى «أزرق»؟. حاولت ربط الأزرق بالتعويذة التي يكررها : «بيور بري أوم أمني بدها أوم». ولكن عبثاً.

وغرقت في أبحاث لا أول ولا آخر ولا نظام لها، حول النصوص الكونية المقدسة. مثلاً،

تعثرت بنص مقدس وجميل جداً، وحتى مذهل، للهنود الحمر يدعى «حلم الأيّل الأزرق»، في كتاب «نصوص مقدسة»، وهو كتاب طريف وضع فيه صاحبه «البيان الشيوعي» من جملة النصوص الدينية.. تذكرت أن بري قال شيئاً عن «زعيم هندي أحمر»، معه بندقية كبيرة ويركب حصاناً. «قلت له : كيف تزعم بأنك تمثل وعياً كونياً ما دمت زعيم قبيلة ؟ صوب البندقية نحوي، فقفزت على ماسورتها وجلست هناك كعصفور صغير، وزقزقت له : لن تصيبني الرصاصة الآن، أجب على سؤالي.» ووصف وجه الزعيم بكلمات قليلة، وبدا لي أن نفس الوصف ينطبق على أحد الزعماء الهنود في «حلم الأيّل الأزرق». وتعثرت بمجلدات بعنوان : «كتابات حكماء الشرق المقدسة» أو «نصوص الشرق المقدسة». وبكتاب غريب جداً، ومذهل، يدعى «قلادة الفهم الخالص»، كتبه راهب بوذي من التيبت، وترجم للانجليزية باسم «الذهن في علم النفس البوذي»، وعرفت لاحقاً أن بري يعرفه جيداً. ووجدتني من رواد مكتبات «الأسرار»، من نبوءات نوستر اداموس، حتى الـ «آي تشينغ» («كتاب التغيّرات» السحري في الصين القديمة)، ومن لاوتسو حتى «أعمدة الزن السبعة»، ومن الزن حتى رواية «طريق محارب مسالم» لدان ميلمان، ومنه لكاستينادا الذي يزعم البعض أنه لفق ما كتبه عن السحر عند الهنود الحمر، ومن هناك للـ «يوبيناشادات» (نصوص مقدسة في الهند).

كنت أكتب ملاحظاتي في دفتر صغير أحمله معي دائماً. وبدأت بفك طلاسم لغة بري. مثلاً، عن تعويذته المبهمة التي كان يكررها كما تكرر سوزان رسمة الطاووس : «بيور بري أوم، أومني بدها أوم»، كتبت في هوامش دفتري ما يلي :

١. بيور : كلمة انجليزية تعني النقي، الطاهر.

٢. بري : اسمه. واسمه أصلا بالتركية «باريش»، وقام بتحويره إلى «بري»، وهي كلمة عربية مشتقة من «بريء»، أو من «باري» (أحد اسماء الله الحسنى). ويبدو أن سبب تغييره لاسمه هو رغبته في تغيير هويته، عبر تغيير اسمه، اعتقاداً منه بقدرة الإسم السحرية على التأثير على المسمى، سواء أكان حجراً أم بشراً، وبالتالي سيقع هو تحت السلطة السحرية للإسم الجديد. إن كان اسم «بري» مشتقاً من «باري»، فإنه يتشبه بالله، كما ورد في الـ «تشبهات» الصوفية عند ابن طفيل في «حي بن يقظان». ومثاله الأسمى أن يكون «حياً» و «يقظاً»، و«نقياً»، وربما إلهاً.

٣. أومني بدها : يبدو أن لهاتين الكلمتين أصولاً في السنسكريتية. (لاحقاً فهمت من بري نفسه أن معناهما عنده «الطاقة في كل مكان»).

٤. أوم : مقطع مقدس يردده رهبان التبت والهند، مثلاً، ويبدو بأن ترنيم حرف الميم في نهاية المقطع ترنيماً لا متناهياً يجعل الميم رمزاً للمطلق، كحرف الألف عند الشيخ محيي الدين بن عربي.

التعويذة، إذن، صلاة سحرية، بكلمات شتى من لغات شتى وأزمنة شتى، تدل ليس

فقط على عقل موسوعي المعرفة، بل على هوية تشبه هوية مولانا جلال الدين رومي – هوية شخص ليس مسلماً أو يهودياً أو مسيحياً أو عابد أصنام أو أي شيء آخر، لأنه «كل هؤلاء»، صلاة سحرية لله أو للكون أو للطاقة، من أجل بري نقي طاهر وبريء، فالطاقة في كل مكان، في حرف الميم، وفي بري، وفي النجوم، وفي الأسماء. هذا المخلوق ينحت حواف المجرات، وله «وعي مجري» أو «نجومي».

في ملاحظة أخرى عن حركاته، كتبت : «وضعه ليده في أسفل بطنه : في حكمة الشرق الكون والجسم طاقات، وفي الجسم مسارات للطاقة (هي التي يستلهمها العلاج بـ«الإبر الصينية»). في مسارات الطاقة محطات أو مراكز كل منها يدعى «تشاكرا». المعدة مركز الإرادة، ويبدو بأن بري كان «يرفع إرادته» بيده اليمنى. في القرآن الكريم، يوم القيامة، قد يمسك البعض كتابه باليد اليمنى أو اليسرى، وبطن بري «كتابه».

هذه أمثلة فقط من «قاموسي الصغير». وبناءً على ما أعرفه أو أعتقد أنني أعرفه، رتبت جيداً لحيلة تشبه «حصان طروادة»، أو «الحرب عن طريق الخداع»، بها أخرج قلب بري عن حده، حتى يكلمني حلزونه الأحمر.

بعد لعبة شطرنج معه في «المخرج الأخير»، عندما أهزمه سيتخيل بأن قوى خارجية ما، شياطين أو أشباحاً أو آلهة لا فرق، تدخلت في ذهنه، وحرمته من التركيز، وشوشت بصره، وسيضع يده اليمنى تحت بطنه في حركة سحرية بها يطرد تلك القوى، ويتمتم تعويذته. عندها بالضبط سأتدخل وأخرج قلبه عن حده. وليكن الطوفان.

استسنحت الفرصة فأتت. راقبته حتى خسر وراقبت تلونات وجهه، وعندما وضع يده اليمنى في أسفل بطنه، ورفعه، وكاد يبدأ التعويذة، قاطعت طقوسه قائلاً «أعد الضوء الأزرق عارياً نحو بيته». كنت سمعت هذه الجملة منه، ومعناها متاهة تبدو التعويذة معها لعبة أطفال، ولم أكن أعرف أنا نفسي الكثير عنها، ولكن قدرت بأنها تلمس أعماق روحه، وتوقظ قوى مجهولة فيه. وسرت فيه كالسم، وخرج عن حده فعلاً.

أزاح بيده كل بيادق الشطرنج عن الرقعة، ولف لفافة تبغ بغضب، ثم استند للخلف على مسند كرسي من الخشب وأطرق لمدة خلتها لن تنتهي أبداً. فجأة انحنى نحوي حتى شعرت بأنفاسه على وجهي، وحملق في عيني وقال ضاغطاً كل حرف : «يا رجل، لم أتكلم منذ خمس سنين مع أحد، وها أنت تكلمني، ما نواياك؟».

قلدت حركته، وقربت عينيّ أكثر وقلت ضاغطاً كل حرف «اسمع يا رجل ! أنا لست النبي موسى، ولا أطلب من الله أن يكلمني تكليماً، لكن وصلت في الحياة إلى منطقة حرام، أمامي أسلاك شائكة وشفق ليس كأي شفق آخر، وأرض ممنوعة. أنا مرتعب من فقدان عقلي، من الجنون. لا أستطيع العودة من حيث جئت، وعبور السياج قد يعني الجنون، وأنت من سكان ما خلف السياج، ماذا هناك؟». بصق فتات التبغ وأطرق مرة أخرى ثم وضع يده اليمنى على الطاولة ونهض، وأحسست بأنني لن التقي به أبداً بعدها. فجأة

قال : «أدعوك إلى بيتي، ستتعلم الليلة شيئاً، أدعوك إلى بيتي».

|

كان الهواء بارداً جارحاً وطازجاً حين خرجنا من «المخرج الأخير» إلى شارع الجامعة. سواد الإسفلت كان مغسولاً بالمطر وبرذاذ ضوء من مصابيح نيون على أعمدة من المعدن، وكل شيء يبدو طازجاً، وبدا الاسفلت في نظري تلميحاً لمرآة سوداء لامعة تضيق كلما ابتعدت، وكنت أرى وجهي في القنوات. بري كان يسير على سطح هذه المرآة الداكنة، مثل حصان. قال : «أنا كتلة من الديناميت، وعندما تأتي نهاية حياتي الحالية سأنفجر، بوم ! بوم ! سأبعث الضوء الأزرق عارياً نحو بيته ! عقلي ذهب نقي، ذهب نقي، كثيرون انتهوا في مستشفيات الأمراض العصبية، وأنا لا، لأنه من ذهب نقي، وأنا أشفى، أشفى، ستتعلم الليلة شيئاً، عقلي ذهب.» لفت نظري استخدامه لنفس الكلمة الواردة في التعويذة : «النقي». هنا يبدو بأن «بري النقي» يعني عقلاً من الذهب لا تشوبه شائبة. كنت أصغي بصمت، حريصاً على أن أكون سميعاً، لا ثرثاراً، وأسأل لأعرف، لا لأجادل في أي شيء كائناً ما كان. سألته:

– «وما العقل؟».

– «العقل ؟ واو ! مرعب يا رجل .. أنظر ..» ، وأشار بيده اليمنى إلى مصابيح النيون، ومرآة الاسفلت، وناطحات السحاب بقرب الميناء، بعيداً، وللسوبرماركتات المغلقة، ومكتبة الجامعة، وقال : «هذا هو العقل».

شعرت بنفس سحري يسري في كل هذه «الأشياء»، في كل ما يدعى بـ «الأشياء». تذكرت هذا البروفيسور الأميركي الذي كان يقف في ساعات الليل المتأخرة أمام باب البناية التي يسكن فيها في رام الله، ويبدو مسحوراً بشوارع خالية مضاءة بمصابيح صفراء. كان يراقب «العقل»، بدون أن يدري.

كنت أعتقد أن «العقل» موجود في أنسجة الدماغ، في «داخلي»، فعثرت عليه في الشوارع ومصابيح النيون ! شعرت بعظمة العقل، بطفحه. أدرت نظري في كل ما حولي بذهول، وأنا أردد بلا وعي مني : «هذا هو العقل ! » سألته هل نحن في داخل العقل، كالنبي يونس في بطن الحوت؟». قال : «نحن فيه، وهو فينا. أنظر للمخرج الأخير يا رجل : ما هو ؟ مقهى؟» قلت : « نعم مقهى، طاولات خشب، ومصابيح «كاز» ولوحات على الجدران». «لا ! لا ! هذا المقهى كان حلماً في خيال صاحبه وبناه ! والآن نحن نلعب الشطرنج في داخل حلم صاحب المقهى، في دهاليز حلم سابق. تخيل ! توجد مجرة مضيئة ومنفصلة، وتدور حول محورها، وتسبح في داخل كل ذهن».

أشرت لناطحات السحاب المضيئة في البعيد، قرب الميناء، لهذه الهندسة المجردة، الشاهقة، التي تقف كمعجزة باردة، لا مبالية، تحاول زيادة المسافة بينها وبين أقرب بناء مجاور إلى أقصى حد ممكن، فتتسلق السماء لتوحي بقوة البنوك والشركات المتعددة

الجنسية، الصياغة الأسمى للروح البروتستانتية، وسألته : «ما رأيك في من يعتقد بأن العقل لغز لا يراه أحد؟». قال : «لا تصدق مفاتيحهم ! «.

وصلنا زقاقاً خلفياً فيه ظلال وصناديق قمامة. قال انتظرني هنا. ودخل في الزقاق، واختفى تماماً. وبقيت وحدي كالأبله لا أدري ماذا أفعل بأوامره أو بنفسي. عاد، فسألته أين كان فقال : «لي معبد هنا». له معبد ؟ في زقاق خلفي ؟ قال : «أحول نفسي إلى ضمة ورد على بابها ! « من هي ؟ !. «السيدة».

أقرب معني لـ «السيدة» هذه أنها امرأة ما يحبها، ولكن لاحقاً سأدرك أنه يقصد بها «القلب» : سيقول لي في جملة من أجمل صياغاته عن الجنون : «العقل في خدمة السيدة» «وما هي السيدة؟». «القلب».

وصلنا أخيراً إلى بيت من النمط الأميركي. مدخل من درجات خشب مهترئة تفضي إلى باب زجاج. دخلنا صالوناً مفروشاً بموكيت أزرق قذر، فيه طاولة خشب ضخمة ومقاعد خلفها شباك واسع. على اليسار، مسنوداً إلى الحائط، جيتار قديم، وعلى اليمين باب مطبخ قربه درج ينزل من الطابق العلوي. دخل المطبخ وأشعل سخاناً كهربائياً وأخذ يقلي بيضاً في مقلاة فولاذ سوداء القعر. كان الزيت يغلي حين قال : «جاءني معلمي بالأمس وقعد لي في المقلاة، وقال بأنه يريد العشاء معي. قلت له : اخرج من المقلاة فلا بيض عندي لنا معاً. قال : لن أخرج، قلت له : سأقليك، أقسم بالله سأقليك. ورفض. تخيل ! قعد لي في المقلاة».

«وماذا فعلت بعدها؟».

«قليته !».

وفرط ضاحكاً. شعرت في هذه اللحظة بأنني مع مجنون رسمي. وقعدت على الطاولة بعيداً عنه. وعندما تكلم شعرت بأنني مع عبقري – مجنون قال:

«تلامذة كثر يدقون على بابي بأيد ماطرة كي أعلمهم، وأعلمهم ما هو التعليم، ولكن لا يفقهون كلامي. تجاربي معبدي، ومعبدي مقدس. وأدخلهم معبدي ولا يفقهون كلامي، فيستحيلون إلى علق على ستائره. ومعلمي كان بإمكانه أن يعلمني الغوص قبل أن يلقي بي في بحره. سأقتله إن جاءني، وقبضت عليه، سأقتله، أقسم بالله سأقتله. التسامح ليس من فضائلي. تخيل. بالأمس تعريت تماماً، وكانت ملكة جمال الكون في سريري عارية، ولما هممت بها وهمت جاء معلمي، وأزاحني. يا رجل، أخذها مني، وضاجعها أمامي، ولا أي حس بالحياء لديه، أخذها».

– «ومن هو معلمك؟».

\ «صوفي من قونية».

– «معذرة، ولكن لم أفهم. هل تقصد أنه جاء، حرفياً، وقعد لك في المقلاة، مثلاً ؟».

\ « لا ! لا ! لكل إنسان جسدان : جسد ذهني وآخر فيزيائي. جسد معلمي الفيزيائي

يقيم الآن في قونية في تركيا، ويزورني جسمه الذهني، صورته تأتي من قونية إلى سياتل، لهذا «أتذكره»، انه يتنكر ويبعث روحه إليّ. هل مات لك أحد ؟ ».

– «أبي وأخي الصغير، دفنوا الأخير في كهف، فلسطين بلد كهوف».

\ «هل حلمت بأبيك بعد موته؟».

– «مرات».

\ «هذا هو جسده الذهني الذي يترك قبره ويزورك».

– «ولماذا يعود ؟».

\ «واو ! هذه قصة. ولكن إن زارك وجه تأمل ملامحه، واسبر نواياه».

– «قلت لي زارك طائري الأزرق في الليل ..».

\ «نعم، روحك جاءتني».

– «ولماذا تنكرت في شكل طائر أزرق؟».

\ «هذا غيب لن أحدثك عنه. ولكني تأملتها، وفهمت نواياها، ولماذا جاءت. اسبر نوايا زائريك يا حسين ! ».

فجأة انتبهت لعملاق نحيف جداً ينزل على الدرج الداخلي من الطابق العلوي. كتلة عظام بوجه أصفر مشدود كجلد الطبول، وعيناه تحملقان معلقتين في مسار أفقي، في الفراغ، عيناه واسعتان بشكل جنوني، ولكن بغير بريق أو حيوية أو حركة، بل بانطفاء. كان ينزل ببطء شديد، ويمشي بثبات نحو الصالون، ثم اتجه إلى الباب، وكأنه يعرف أين يتجه. حدق فيه بري لحظة ثم أخذ يلف لفافة تبغ، ويبصق فتاتها، ويقول:

– «يا رجل، عالم دوستويفسكي حقيقي، هذه حالة تزورها أجسام ذهنية كثيرة».

\ «وكيف يرى؟».

– «بعين ثالثة».

شرد ذهني إلى ثقافة الموتى عندنا في فلسطين. قلت له:

– «كثيرون في فلسطين ماتوا شنقاً أو ذبحاً أو سماً أو برصاص أو قصف أو بطرق أخرى. ومن ظل منا حياً تزوره الأجسام الذهنية لموتاه، وتشاركه في عشائه، وتقعد له في المقلاة. أنا يزورني شبح أبي، وأخي، وصديق استحم قبل سنين وتعطر ومشط شعره، ليلاً، وفي الصباح ذهب لتظاهرة ضد الاحتلال الاسرائيلي وقتل. ارتعبت ليس من موته بل من كونه كان يحضر نفسه للموت. تزورني أرواحهم، وقد صارت عظامهم مكاحل، في بلد يسيطر فيه الموتى على الأحياء والماضي على المستقبل. هذه هي «سلطة الذاكرة». وفي منطقة عميقة يقاس تاريخها ليس بقرون بل بألفيات، الذاكرة خطرة جداً، معمل أشباح. أو لم تهدد الإلهة عشتار في «ملحمة جلجامش»، قبل عدة ألفيات، بـ«فتح بوابات العالم السفلي»، وتجعل الموتى يتناولون عشاءهم مع الأحياء؟ لا نستطيع العيش بذاكرة عميقة كهذه ، ولا بدون ذاكرة أيضاً . ما الحل ؟» .

\ «افتح عينك الثالثة».
– «كيف؟».
\ «في التيبت يفتحونها بعملية جراحية». وضحك عالياً، ربما سخرية من سؤالي. وبدا لي أنه يلمح لكتاب «قلادة الفهم الخالص».

انفتح باب الخروج ودخل عدد من المراهقين والمراهقات. فالبيت الذي يسكن فيه بري «سكن جماعي»، على النمط الأميركي : في الطابق العلوي غرف نوم، ولكل مستأجر غرفته، ولكن الحمامات والصالون والمطبخ مشاع للجميع. لم أدر من هؤلاء المراهقون، ولماذا جاءوا. وبري بدا وكأنه يعرف، ولكن لم يكلموه ولم يكلمهم أبداً.

كانوا ستة أو سبعة، يشربون البيرة، ويتصايحون، ولكل فرد منهم تقليعة خاصة في تصفيف الشعر، من تقليعات حركة «البَنْكس» : نصف الشعر حليق، والنصف الآخر مصبوغ بلون ناري وأزرق، أو كل الرأس بلا شعر ما عدا خطا يشبه «عرف الديك» مصبوغا بألوان فاقعة، برتقالية أو صفراء وبنفسجية، وهكذا.. لوحة سريالية، سعة خيال بها يحاول كل فرد أن يكون «مختلفاً» عن غيره، ومن المفارقة أنهم يتشابهون جداً في سعيهم للاختلاف، وفي مظهرهم، وسلوكهم، وحتى طريقة كلامهم. قالت لي سوزان، عندما تعرفت عليها لأول مرة، «أهلا بك في نظرية الرقم واحد». «وما هي نظرية الرقم واحد؟». ضحكت وقالت : «أولاً أنا وثانياً أنا وثالثاً أنا، وعاشراً أنا، إلى ما لا نهاية».

بينهم مراهقة ذات وجه طفولي تحاول أن تبدو ناضجة، وتشبه مدينة سياتل نفسها التي تحاول أن تبدو مدينة كبرى كنيويورك. ولما سألت كاتباً مسرحياً من نيويورك عن رأيه في سياتل قال : نيويورك امرأة، سياتل بنت. «وخطر في بالي أنه لا توجد في فلسطين مدن عربية تستحق اسمها، والنتيجة أنه لا توجد عندنا نساء بل بنات، ولا يوجد رجال بل أولاد. في قرانا ومدننا الناس متشابهون إلى حد الكابوس. هنا كل فرد عالَمْ. كانت تلك المراهقة تلبس لباس «باليه» أسود مشدوداً على مفاتن جسمها، وأخذت تتلوى بإغراء، ثم نامت على الموكيت الأزرق القذر، وأخذت تتدحرج وتتلوى وتتنهد. وهنا حدث مشهد لا ينسى، ولا سينما العالم كله تلقط لقطة بهذه الغرابة والايحاء : كان العملاق قد وصل إلى هذه المراهقة التي لم تزل تتلوى على الموكيت : رفع رجله ببطء شديد، شاخصاً لم يزل في عالم آخر، وتجاوزها، وواصل سيره من فوقها، وواصلت التلوي، لا هو انتبه ولا هي استغربت. تذكرت فتاة منفصمة الشخصية قالت لي عن الولايات المتحدة : «هنا تستطيع أن تذهب إلى جهنم، ولكن وحدك، وتذهب فعلاً، ولا أحد يهتم». بري وأنا كنا فقط نراقب. قال : «أحب الثقافة الاميركية يا رجل. لكنها أكثر ثقافة وحيدة في العالم، الامريكان يرتعبون من الوحدة».

كنت متوتراً، منهكاً، مخنوقاً من شدة التدخين وشرب القهوة الأميركية التي تجعل

نبضات القلب تشبه شاشة تلفزيون مشوشة بلا أي انتظام في دفقات الكتروناتها. قلت إنني سأخرج للتسكع في الغابة حول الجامعة، وقد أعود غداً في الليل.

|

والممرات في الغابة مرتبة، وأنيقة، ومضاءة بالنيون مما يحول الشجر إلى كتل ظلال داكنة مرشوش عليها بياض شبحي. لعل كوني تربيت في جبال مكشوفة، جافة، وصخرية، ولا شيء إلا زرقة السماء الملتهبة، ومدرجات من جنائن زيتون وشجر قصير، خلق في روحي فراغاً جافاً ومفتوحاً وجبلياً. لم أر الصحراء أبداً في الطفولة، ولكن «ذاكرة الفراغ الصحراوي» سكنتني عبر الشعر : البحر والصحراء والجمال والخيام والنخل والواحات أساس في هذه الذاكرة، أعني الشعر العربي. «زرقة بحر على حد صفرة رمل»، فراغ رملي وفراغ أزرق. كل هذا يجعلني أشعر بالضيق من غابة تحاصر الجلد، وتغلق المكان حولي، وتخفي مجرماً بسكين أو جثة تحت الورق المبتل، مما يحول الإنسان إلى حارس سري على نفسه ولا يعرف إلاّ اليقظة العسكرية. والمطر شبه الدائم، والخضرة المملة الأقرب إلى جحيم أخضر منها إلى الخصب ، تشعر جلدي المتعود على الشمس والجفاف بالغربة. عندما أدخل العرب أول نخلة إلى أوروبا، في الأندلس، سموها بـ «الغريبة» . كنت نخلة غريبة.

في تسكعي عثرت على بقعة معينة في الغابة صرت أعبدها : أجلس فيها على درجات من الطوب الأحمر الناري تفضي نحو باب مغلق، وأمامي شجر متباعد، وحين يشع القمر، أو تكون السماء صافية، أرى فضاءات تتكاثر بين الفروع المتباعدة، وكأن الفروع نفسها خطوط سوداء في لوحة. تذكرت قول خليل جبران بأن الشجر شعر تكتبه الأرض على صفحة السماء، ونقطع الشجر ونحوله إلى ورق كي نسجل عليه فراغنا. كنت أشرد لساعات هناك. وتأتي موسيقى بيانو من شباك مضيء بعيد، وغناء فتاة جميلة الصوت تتدرب على الغناء الأوبرالي، وبعدها يحل صمت. يا إلهي كم كنت أحب الصمت عندها.

ذهبت إلى هذه البقعة. واستعدت بعضاً من حديثي مع ذلك الصوفي. قلت له «الله الآن قوة صامتة، منذ نزول القرآن لم ينزل الوحي على أحد». «سأكتب كتاباً عن قوة الصمت». قال الصوفي. «لكن رأسي وحده لا يهدأ، وأفكر أفكر أفكر».

«ذهنك يشبه سعداناً ينطنط فوق أصابع بيانو»، قال الصوفي. فقط الانهاك من المشي المستمر يقود إلى صمت ذهني، نعم، الإنهاك المستمر الذي يقعدني على هذا الدرج. «ما أتعس ذهناً لا يصغي لما هو خارجه، ولا يهدأ، ويشتبك مع نفسه».

«الذهن عقرب قادرة على لدغ نفسها»، قال الصوفي : «لقد نهشوا عقلك يا رجل، نهشوه، مثل شاة معلقة على فرع شجرة كي تشبع قطيع ذئاب .. صار كالكرة التي يتدربون عليها في الملاكمة !». سألته : «من هم ؟»، قال : «هم، من يسكنون في ذهنك، خبراء النهش».

لو يصمت البحر الذهني ويتعلم من صمت الله.

كنت أريد أنثى، أنثى بأي ثمن، في جو أشعر فيه بأنني ضفدعة. فجأة خطر في بالي أن بري نفسه لا يختلف عن كنيسة الديانتيك، أو أي داعية لأي حزب أو وطن أو طبقة او طائفة أو عشيرة أو مذهب: يريد السيطرة على عقلي. وقد يكون رجل مخابرات حتى.

ووجدتني أتجه إلى بيته، مستفزاً، وجدته نائماً على ظهره فوق الموكيت الأزرق في الطابق السفلي، ويداه تحت رأسه، ويحدق في السقف. «أهلاً، حسين. جئت؟» «جئت طبعاً، أنت تحاول السيطرة على عقلي يا رجل ! » . قعد وقال : «من امتيازات العقل الأعلى أن يسيطر على العقل الأدنى. إن لم يكن عقلك دونياً لا يجب أن تخشى من السيطرة، وإن كان أدنى مني فمن امتيازاتي السيطرة عليه، وتستطيع أن ترحل».

«لا ! سأبقى، سيطر إن استطعت».

كنت في حالة من الغليان. نهض نحو المطبخ.

– «أتشرب الشاي؟».

\ «لماذا ؟ أتحتفل قبل الأوان بالهيمنة على عقل أدنى منك كما تعتقد ؟».

– «لا تقل لي ماذا أعتقد. لكن والت ويتمان قال بأن خير تلامذتي من يتعلم من تعاليمي قتل معلميه. علمتك جيداً، فتحديتني. لا بأس ! اشرب الشاي، ربما أنني احتفل الآن بموتي أو بالهيمنة على عقلك. اشرب ! «.

يا إلهي ! لم أر أوقح من هذا. حملت كأس الشاي وصعدت الطابق العلوي، ولحق بي، أردت أن أرى غرفته. أنا خبير في قراءة نفسية الشخص من أثاثه وطريقة ترتيبه للأثاث. سأرى أثاثه. سبقني وفتح الباب، وأدخلني. أول ما صدمني طاولة صغيرة عليها لوحة من كرتون فيها انفجار أخضر حاد، بخطوط وتموجات أشبه ما تكون بجنون فان كوخ، ولكنها أصيلة، وهذا البركان يخرج من مربع صغير بالأسود والأبيض، يبدو وكأنه يطفو في الموج. اقتربت منه وذهلت : وجه بري نفسه، مقصوص من صورة كاميرا، وعيناه محملقتان في كتل اللون المجنونة التي ترتفع كالموج حوله. على يمين اللوحة سرير، بهيكل معدني عليه فراش ما. باقي الغرفة فارغ، ولا شيء، زوايا نظيفة. رجعت إلى اللوحة، شيء ضربني في معدتي منها، حزن فوق إنساني. نزلت ثانية إلى الصالون، وكنت أغالب رغبتي في البكاء، وأشعر باختناق في الصدر، سألني : لماذا صعدت إلى الغرفة ؟ قلت إنني تربيت في الطفولة مع أمي أساساً، أبي كان عاملاً مهاجراً في بيروت، يأتي احياناً ونذهب إليه أحياناً، وبقي غريباً عني إلى حد. وأمي لم تكن تعترض طريقي، أتجول في الجبال كيف أشاء، وأفعل ما أشاء، ولم أزل أعتبر بيوت الناس مشاعاً كالجبال. ضحك وقال : «يا رجل، لم يخمدوا عندك حب الاستطلاع ! بقيت فيك غريزة القردة». «أو لست قرداً؟». «أنا ؟ لا ! هل تدري لماذا ؟ لأنني أتطور يا رجل، في كل ليلة عندي جديد. بالكاد أعرف من أصير».

|

خرجنا لنشرب القهوة في «فندق الجامعة» في ساعة متأخرة، ولا أحد في الحانة. وكنت أراقب عبر جدار زجاجي واسع المطر الخفيف الدائم في الشارع. قال بري إنني لا ألتذ بالقهوة بل أعبها عباً. وحدق في لوحة على الحائط المقابل، فوق البار، لوحة رخيصة جداً سبق ورأيتها. قال : «ما هذه؟» «لوحة رخيصة». «لم أسأل عن قيمتها بل عمّا هي». «عن رجل عجوز يشرب القهوة». أجبته بدون أن أكلف نفسي بالمعاناة مرة أخرى من رؤيتها.

«حسين، أنظر إليها». ونهض نحوها، ووضع اصبعه على بقعة فيها وقال : «هذه حافة فنجان عليها خط أخضر، وهذا فنجان له شكل قبعة، وهذا حذاء قديم». كان يضع اصبعه فوق كل شيء وكأنني تلميذ غبي في الصف الأول. «هل لاحظت لذة العجوز في شرب القهوة؟». «لا ! » . «وهل لاحظت أن لون القبعة أسود كالقهوة؟» «لا !». «لأنك أعمى يا رجل ! لا توجد رؤيا بغير معرفة التفاصيل ! ». «لوحة رخيصة ولا أحتاج تفاصيلها ! ». رجع نحوي غاضباً، وقال : «اسمع. عندك الليلة وظيفة مدرسية : أدخل الحمام وافتح «الدوش» حتى آخره، وراقب الماء حتى الصباح، أتسمع، حتى يطلع الصبح».

خرجت غاضباً، ولم أجب. ولكن وجدتني بلا إرادة مني أفعل ما قاله. جلست على حافة البانيو الباردة، وفتحت «الدوش»، والحنفيات كلها، وحدقت في المياه تسيل حتى الصباح. شعرت بفرق هائل بين عقلي وبين تدفق الماء : عقلي صلب، وواقف، ثابت مثل الجبال التي تربيت فيها، والماء يتدفق ويهدر ويتشكل، وشعرت ببرد في جلدي. كنت أرتجف. تناولت ورقة وكتبت قصيدة تدفقت مني كالماء. طرت فرحاً، وخرجت راكضاً إلى المخرج الأخير والورقة في يدي. كان المقهى مغلقاً فانتظرت حتى فتح، وجاء بري كعادته. طلب مني دولارين لشرب القهوة، وقرأت عليه القصيدة، فتناول الورقة مستفزاً، ولم أره غاضباً إلى هذا الحد من قبل «. يا رجل ! قلت لك راقب الماء، فكتبت قصيدة عنه ! ألا ترى شيئاً إلا لكي تكتبه ! إلى جهنّم بالشعر، راقب الماء».

ومزق الورقة ونثرها فوق رأسي. جن جنوني، فقبضت على عنق معطفه، وصرخت لا تتجرأ مرة أخرى على مس قصاصة ورق كتبتها أنا. كدت ألطمه. «يا رجل الأنا عندك أكبر من مدينة سياتل ! » . قال وبدأ بلف لفافة تبغ جديدة بهدوء ثم أكمل، لما هدأت قليلاً، «راقب الماء كي تفهم شيئاً لم يفهمه أحد حتى الآن يدعى «التغير». راقب الماء لتفهم الجنون».

صدمتني الجملة، ولم أجب. جمعت القصاصات معاً مرة أخرى وقرأت القصيدة ثانية. راقبني بحب فاجأني، وقال : «حسين، هات الورقة». تناولها مني وقرأها ثانية، وفي يده قلم رصاص، ثم قال : «هذه قمامة من الإنطباعات، فيها جملة واحدة فقط مفيدة (رسم تحتها خطاً بقلم الرصاص) : «كن شلالاً، وكن سمكة». لكن هل تفهم معنى ما قلته؟ ما معنى «كن سمكة؟»».

فكرت لكن لم أجد جواباً. رسم سمكة بفم مفتوح على الورقة، وقال : «هذه سمكة. كن سمكة. نقطة.» ولم أفهم لا ما قال ولا ما قلت.

في الليل رجعت لمراقبة الماء، ونسيت الشعر. كم كنت منهكاً، ولم أنم لأيام، والله أعلم كم مرت أفكار في ذهني وأنا أحدق في الماء، وأرجف من الرذاذ. غفوت بدون أن أدري على حافة البانيو. وغريب جدا أنني حلمت بأنني سمكة في قعر بحر. فوقي سقف شفاف سائل فيه صبغة خضراء، وفمي ينفتح وينغلق ويلتقط فتات البحر، ورفوف سمك ملون تعبر بالاتجاه المعاكس، وأنا أسبح، أسبح، أسبح، أسبح، مررت على مدينة نحاس غارقة كنت قرأت عنها في «ألف ليلة وليلة»، وعن أخطبوط واقف يحدق فيّ في باب كهف، وبيت من حجر بدا شبه بيتنا في الطفولة، وأنا أسبح، أسبح، أسبح، أسبح، من عالم إلى آخر. جادلت بري في اليوم التالي عن معنى الحلم. قال:

– «هل تسمي السمكة سمكة إن كانت تسبح في البحر فقط، ولا تسبح في كأس أو بانيو؟».

\ «لا».

– «وإن كانت تسبح في بركة فقط ولا تسبح في البحر، أتسمى سمكة؟».

\ «لا».

– «لماذا ؟».

\ «لأن من طبيعة السمكة أن تسبح في كل ماء».

– «هذا هو الفهم : سمكتك الذهبية، من طبيعتها أن تسبح في كل نظرية، كل تجربة، كل رأي، كل نوع من المعرفة، كل ماء، وتبقى هي هي : سمكة ذهبية. إن من طبيعة الذهن أن يفهم نفسه، كما أن من طبيعة السمكة أن تسبح».

\ «وأين يسبح العقل؟».

– «في نفسه : إنه الشلال والسمكة التي تسبح في الشلال. هل فهمت معنى قولك : «كن شلالاً وكن سمكة»؟

\ «فهمت».

– «ولم لم تفهم هذا سابقاً؟».

\ «لا أدري».

– «لأنك لا تتأمل الكون».

\ «وما هو التأمل؟».

– «أن تتأمل نفسك يعني أن تفهم ما كنت تعرفه دائماً من غير أن تفهمه. دائماً كان قلبك يعرف معنى كن سمكة وكن شلالاً، حتى قبل أن تكتب الجملة كنت تعرفها، ولكن بدون أن تفهم ما تعرفه».

\ «بري، دعني اسأل عن شيء حاسم بالنسبة لي : تدري، أنا مرتعب من الجنون، من

فقدان عقلي. ما المخرج؟».

ـ «لا تتعجل».

تناول قلم الرصاص وكتب على ظهر القصيدة:

«الحياة لعبة شطرنج

ذهنك فيها الرقعة، والحجارة، واللاعبون، واللعبة، والقاعدة

فافهم،

وإلا فإنك أبله في تمام الساعة الواحدة.».